# فينكس

رواية

عنوان الكتاب : فينكس
المؤلف : ناهض الهندي
التصنيف: رواية
الطبعة: الأولى
سنة الطبع : ٢٠٢٣
ISBN : 978-9922-9982 -4-4
مدير الدار : رياض داخل
التنسيق الداخلي و تصميم الغلاف : فلاح العيساوي
إيميل : fffhh9@gmail.com

~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق في بغداد (٤٣٩) لسنة ٢٠٢٣م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook

~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~.~

ناهض الهندي

# فينكس

# Phoenix

رواية

٢٠٢٣

لو قيل لي ما هي
عصارة العمر
وخلاصة التجربة؟
لقلت بلا تردد:
أحبوا خصمكم وأنصفوا عدوكم!
فبالعدل والحب والرحمة اجتمع الناس حول الأنبياء
ولأن المسيح كان يكرز بها، رُفِعَ لمصاف الآلهة

*****

أحنُّ إلى خبز أمي
وقهوةِ أمي
ولمسةِ أمي..
وتكبر فيَّ الطفولةُ
يوماً على صدر يومِ
وأعشقُ عمرِي لأني
إذا مُتُّ،
أخجل من دمع أمي!

محمود درويش

# إهداء

إلى وجعي الذي استعار الخلود من عشبة أتونا بشتم

إلى من سكب ألمه حبراً في قلمي

إلى من كدّر نهاره وعكّر مساءه ظل كلماتي الثقيلة

أفرش بساط اعتذاري عن جرم ثرثرتي التي لن أكف عنها إلا حين

يكل لساني ويقصم قلمي

أما من أصغى إلى صخبي فردّه عليّ نصحاً غيّب عيوبي

أقر لكم جميعاً أني لا أملك ما أرده لكم سوى الاعتراف

بعجزي وأرجوكم بصدق ألا تكثروا من حرجي فتعدوه

تواضعاً، بل اقبلوه كما هو لأنه واقع لا افتراض.

# ١

***

كل شيء كان يشهد بأن المحل الذي أرقد فيه في جوف الأرض تطوقه وحشة مطلقة عن مظاهر الحياة، كأنه درك بئر بلا قاع، أو إنه مقطع من نفق يمتد طويلاً إلى حدود اللانهاية يخلو من أي بصيص ضوء، وغاب فيه كل أمل مع تواري النور عنه. بدا أن الدنيا تتفرس به من مسرب ضيق بعيون كليلة ابيضت من الشجن، وقد أضناها سهر أزلي فما عادت ترى فيه شيئاً سوى العدم ولا تتحسس منه غير رائحة الموت. الموت هو الكلمة الباقية في عقب خطى مخلوقات تحكمت فيه، لها وجوه آدمية لكنها مفرغة بالكامل من الإنسانية. رغم ذلك كله فإنه كان يشتمل على قدرٍ زاخرٍ، بل كمٍ جارف من أسرار هذا العالم التي لم يكن يصعب الوصول إليها وحسب، بل حتى الحديث عنها همساً. لم يكن مكاناً عادياً، بل عالماً يصخب بحياة ذات طابع خاص، تتصل في أعماقها البعيدة بجذور حياة أخرى تغمر الكون بأسره، ويلتقي

معها في أغوارٍ عميقةٍ. عالمٌ الغموض يكتنفه ويخط أحداثه، ليخلق ظاهرة بشرية معجمة، تثير الحنق بقدر ما تثير من التعجب والاستغراب.

أذنت الشمس بالطلوع لتزيح كساء ليل أدهم، زاد من عمق وحشته أنه كان يقيم بين جدران بألوان شاحبة باهتة مصفرة، تتصل بمنفذ لا تختلف درجة لونه عنها إلا بمزيد من البشاعة، كأنه بوابة فخ تؤصد على كل من تعداها، ولا تفتح له ثانية إلا حين يغمره القنوط من وحدة قاسية، والخيبة من حياة تخلو من كل معنى، ولا تسعى إلى غاية محددة؛ فيبحر حينذاك في نهر سفلي نحو أرض دلمون الطاهرة حيث لا غراب ينعق، ولا أسد يفترس، ولا مرض ولا عناء ولا موت يخاف منه أحد أو يحزن.

سرى دبيب حركة في مغلاق باب العيادة الطبية كأنما كان يستبطئ رحيل الظلام المتمادي في تأنيه، ظلام يستنفد كل الوقت ولا يتجلى عنه سوى وجوه مكفهرة كما كشف في هذه المرة عن وجه عنصر أمن في العشرينات من عمره، بسحنة ضاربة للسواد، حليق الذقن وعلى صفحة وجهه أخاديد رقيقة، ولكنها واضحة لكثرتها. عيناه ضيقتان تملكتهما الغلظة والحدة، ممشوق الجسم، يرتدي طقماً عسكرياً زيتونياً بكنزة شتوية

وبنطلون، وينتعل حذاءً عسكرياً ثقيلاً برقبة طويلة. كانت ملامحه تدل على القوة والنشاط، بينما تلوح على سيماه علامات جد وغضب، انعكست على حشد صغير يسير في أثره يعلوه الاكفهرار، ولم يكتف بما عليه من قسمات الشراسة، فراح يبالغ في إظهار المزيد من تعابير الفظاظة.

توجه مفوض الأمن المعروف بـ"سامي"، وعلى الأغلب ليس اسمه الحقيقي، مباشرة إلى سريري ورفع الطبلة المعلقة به المدون في أعلاها رقم ١٩٠، ثم سألني بصوت قاس حازم.

- ما اسمك؟

- علِيّ ديوان احمد جوهر.

- سكنك؟

- محافظة ذي قار، قضاء الشطرة.

- من هذا اليوم وصاعداً اسمك سوف يكون ١٩٠، وعنوانك ١٩٠ هو الآخر، واي شخص يسألك عن أي شيء فجوابك له يجب أن يكون واحداً وهو ١٩٠. إن لفظت حرفاً آخر سوى هذا؛ فستعدم في الحال أنت ومن يسمعك، ثم التفت موجهاً كلامه إلى من معه بمفردة يتيمة خرجت منه، لكن ازدحم فيها حشد هائل من أطوار السماجة.

- اجلبوه.

انقشع بخروجه آخر خيط ظلام من ليل لا ينقضي في هذا المحل، ودخلت عوضاً عنه محفة مرضى لا يكاد يعرف لونها، كل شيءٍ فيها متسخ متآكل، تتحرك بعجلتين أماميتين فقط، يدرك رائيها من الوهلة الأولى أنها كانت بالأصل عربة مكرسة لنقل البضائع في سوق صغير، إنما في السجن الأشياء كلها تتغير وظيفتها، ويتم تحويرها لتصبح متوافقة مع مهامها الجديدة وتكتسب هيبة إضافية لأنها صارت من التجهيزات النادرة؛ فكم من حاجة عافتها أيدي الناس حتى المعوزين منهم؛ فأصبحت لا تقدر بثمن؛ أليست قيمة الأشياء بندرتها؟

لا ينبغي عليَّ إطلاق اسم محفة عليها؛ لأنها مفردة مهذبة للغاية وتوحي بأشياء لا تمت لواقعها بصلة. الأمر لا ينحصر في هذه الكلمة وحسب، بل حتى حينما أقول عيادة طبية فإنه تعبير أجوف لا معنى له ولا يمت للواقع بصلة. أشياء أخرى أقر أنني سوف أطلق عليها تسميات لا تحاكي ما كانت عليه. فعلت ذلك فقط لأني لم أجد في كنانتي ما يليق بحقيقة بؤسها. قد يبدو هذا الكلام مبالغة فائضة في غير محلها أو حتى مستغربا وشاذاً، ولكن ما كان يجري هناك لم يكن عادياً أو طبيعيا البتة.

## ٢

***

رفعت للنقالة بعد أن أحكم وضعي عليها وثاقاً، وانطلق أبو محمود وأبو إسماعيل، وهما سجينان يقضيان محكوميتهما كمستخدمين في المستشفى يجرانها هرولة، وعجلاتها الخلفية تطلق أزيزاً متصلاً تشكو فيه تقادم عمرها وقلة صيانتها. كان هناك أكثر من شخص يعمل مع إدارة السجن، مع أني لم أكن اعرف كيف كان يتم اختيارهم لهذه المهمة. كان أبو محمود رجلاً أبيض البشرة هادئ الطباع ذا خلق حسن، يشعر المرء مع أول تعامل معه بأنه رجل طيب ويتمتع بأخلاق عالية، وبالفعل كان متعاطفاً بشكل دافئ مع سجناء الأقسام المغلقة، يحاول إن يخفف علينا بمزاحه الرقيق وينقل إلينا خلسة أخبار العالم الخارجي التي تصله، بخلاف "أبو إسماعيل" الرجل الوافد من احدى قرى الموصل، فقد كان أسمر البشرة هزيل الجسم ضعيف البنية، حاد المزاج ينفعل لأدنى سبب، ولكنه طيب القلب ينسى انفعاله بسرعة

وينخـرط معنـا فـي ضـحك ومـزاح بعـد دقـائق قليلـة، والحقيقة لـم أكن أعرف بماذا يمكن أن يفيد، وهـو ليس الاسـتثناء الوحيـد، فبعضـهم كـان غريـب المحيا مثل "أبـو خولـة" الـذي لا أظـن انـه كـان يحسـن شـيئاً سـوى دفـع القـدور الكبيـرة التي يـؤتى بهـا الطعـام، فهـو رجـل أحـول بعـين واحـدة متجهم الوجـه طـوال الوقـت، قليـل الكـلام، ومع ذلك كان مصدراً لبشائر عديدة لـم تتحقق. ابتسامته النـادرة كأنها حدث كوني يقع مرة واحدة كل ألف عام والتي لـم أحظ برؤيتها أبداً. يملك قدرة على إشاعة خبر بـين السـجناء يسـري كالهشـيم فـي النـار مثلـه مثـل أخبـار الفضائح في الصحف الصفر. كـان لأخباره محور واحد لا غيـر، وهـو فـرج قريـب بـالخلاص مـن السـجن، أمـا إن سـأل أحـد عـن مصـدر هـذا النبـأ السـار وتباشـيره العارمـة فسوف يقال ببساطة: إن أبا خولة متفائل.

أما عبد القادر الرجل البدين النشيط صاحب الشخصية المرحـة الـذي يجيـد زرع الابتسـامة بسـلوكياته وأقوالـه خـارج سـياق الاتـزان، فكـان يتمتـع بقابليـة خلاقـة علـى احتمـال مـا يثيـر الاشـمئزاز مـن الـروائح الكريهـة والمنظـر المقـزز للفضـلات البشـرية، لـذا كـان ينتـدب فـي مهمـة حصـرية لتصـريف المجـاري حـين تغلـق وهـو مـا كـان

يحصل على فترات متقاربة. كان ينجح في إشاعة جو من السخرية والضحك أكثر من تسليك المجاري، وهذا أمر لا ينبغي أن يستهان به على الإطلاق، فلا شيء أغلى وأصعب من رسم ابتسامة على الشفاه في وسط هذا اليم الهائل من التعاسة. أكثر ما يثير الإعجاب إنه كان مقلاً في الكلام إلى أقصى حد حتى انه كان لا يتفوه بكلمة واحدة طوال عمله الذي قد يستغرق أكثر من ساعة، ومع ذلك فإن كلمة عفوية واحدة تخرج منه كانت كفيلة بجعلنا نضحك طوال النهار.

سار الموكب يحف به نفر من منتسبي الأمن، فيما يقتفي أثره الطبيب السجين منصور في وداع حزين، كأنه يسير في تشييع جنائزي. كان جلياً ان آماله قد تلاشت بأن أعود ثانية، ولا يجد شيئاً يفعله أمام هذا الحال سوى أن يكفكف دموعاً يجاهد لإخفائها، متخذاً من كفيه حجاباً يكسو كامل وجهه مستجيراً من نظرات شزرة يطلقها عناصر الأمن بين حين وآخر، كأنما أدمنوا القسوة وإشاعة العنف. هم مثل أفراد كثيرين قابلتهم في أيامي بل سنواتي، التي قضيتها في السجن وراء تلك القضبان، يجمعون بين سليقة رديئة إلى آخر منازل السوء ورذيلة في الدرك الأسفل من النذالة، وبين قدر من السخافة.

ليس فيهم من الآدمية إلا الهيئة، مع أنه لم يكن يعوزهم المكر والدهاء رغم رقعهم وتبلدهم.

أدير عينيَّ في أنحاء رواق مديد أراه للمرة الثانية، مع أني سرت فيه أكثر من مرة، ولكني كنت في جميعها مسلوباً من الرؤية. دخلت للمرة الأولى فيه عند بلوغي المكان بعد صدور الحكم عليَّ، ومع أن الوقت حينها كان نهاراً إلا أنه كان مظلماً كما هو اليوم. أما في غيرها فقد أخفيت عينيّ، بل ملامح وجهي كلها كي لا يتعرف عليَّ أحد، مع انه كان خالياً تماماً من أي كائن، ولا صوت فيه سوى صدى زعيق أفراد الأمن، وهم يحثوني على الهرولة في الانتقال إلى قسم آخر. تطلعت لجوانبه الرمادية، وأبوابٌ مصفحةٌ كثيرة مغلقة على كلا جانبيه، تقف عقبة كأداء بثباتٍ وتحدٍ بمواجهة أحلام أمهات طالما درن مهفوتات هائمات في هذا الدهليز، وهن يتطلعن بعيون زائغة ووجوه مصفرة بحثاً عن أكباد لهن خطفت غيلة من أحضانهن، فصرن مثل سرب حمائم تائهات شاردات حبسن في قفص كبير، ما إن يحلقن فيه قليلاً حتى يرتطمن بجدرانه. لا يقوين على مبارحته ولا يظفرن من طوافهن العبثي إلا بمزيد من الفزع والخوف، ولا يتحسسن غير العتمة وبرد القسوة في جنباته. تخيب

آمالهن وتتلاشى أحلامهن حينما يسمعن ردوداً خالية من أي فحوى ومغزى.

ذات يوم سُمِحَ لنا بالخروج للتشمس في ساحة كان يفصل بينها وبين ساحة أخرى مخصصة للزيارة بوابة كبيرة، سمعت طرقاً على البوابة ورأيت أطراف أكثر من عباءة سوداء. تشجعت لسؤال صاحباتها عمّا يردن؟ المصادفة أنهنّ سألنني عن رجل درسني الكيمياء في المتوسطة أسمه أحمد نعيم هداد. تملكني الغضب وتحيرت في إجابتهن، فقد كنت أعلم انه قد تم إعدامه وخشيت مصارحتهن فأكون غراب بينٍ ينعب فوق رؤوسهن؛ لذا تقمصت دور المدلسين في الأحاديث وقلت إنه غير موجود معنا ربما في مكان آخر، أليست المدافن مكاناً آخر؟

حاورت نفسي أن الكذب ليس سيئاً في كل المرات، ولتكن كذبة بيضاء؟ أنما هل ما قمت به يسمى هو الآخر كذباً أبيضاً؟ وهل حقاً هناك أكذوبة بيضاء وأخرى سوداء؟ إن كانت بيضاء للزم أن تبقى دوماً كذلك، تريح الضمير وتخفف من توتر الحال، فإن عجزت عن كل ذلك انقلبت إلى سوداء إذا لم تكن هي كذلك بالأصل؟ لم أمتلك شجاعة التحدي، وبدلاً من أن أكون شاهداً على

الجريمة أو أن استثمر الموقف للتعريف عن نفسي وإيصال خبر لعائلتي فضلت السكوت واللجوء للكذب وآثرت الغش والتلاعب على الصدق والصراحة، وأسهمت في استمرار معاناة تلك النسوة. ربما كان هناك حاجز آخر يمنعني من التصريح، وهو خشيتي عليهن، فإن تسرب خبر منهن أو صدرت ولولة عنهن وأنا أخبرهن بنبأ إعدامه؛ لاستدعى ذلك حضور عناصر الأمن وحينها كان سيصعب عليهن الإنكار وكنت سوف أجر معهن إلى عذاب جديد. هذا الاحتمال ليس تبريراً لتراجعي عن التحدي، ولكنه كان سبباً منطقياً في زمن لا منطق فيه.

ترى كم ليلة سوداء عشن بعدها وهن يسرن بخجلٍ وبطء في واحدة من المدن المنكوبة بحربٍ قاسية، ترنحهن دوامة الانتظار كأنهن يمشين في مقبرة على أجساد موتى قبل أن يصلهن خبر إعدامه. أم، بنت، زوجة، كل تاء مربوطة تركها بعده ثكلى بفقدانه، تجمعهن النوافذ المواربة ينتظرن المحال. ما تبصره أعينهن لا يشبه بتاتاً ما تستشعر به قلوبهن، فما يراه المبصر لا يراه الضرير. بخلاف الحركة الدؤوبة في الشوارع واللهاث وراء إعمار وإصلاح المرافق والخدمات كن يشعرن

بخراب النفوس ويسمعن بكاء الركام. يدركن قوة الحرب بدموع الباقين على قيد الحياة لكن دون حياة، القاطنين في لحود مفتوحة. ينتظرن أحبّتهم الذين لن يعودوا، يصرخن بعيون تنقع بالدموع لماذا نسي الأحبة أن يؤكدوا عدم رجوعهم؟ ألا يعرفون كم تركوا خلفهم من موتى يسيرون فوق تراب وطن يملكون فيه بقدر ما دفنوا في ترابه من أحبتهم الصامتين في عالم ثرثار.

## ٣

***

كنت أتفحص وجوه أفراد الأمن التي أحاطت بي، إلا أنه لم يخالطني أي وجل منها البتة، ولم أعبأ بنظرات طفيليين آخرين أراهم للمرة الأولى قد دنوا للنظر لي، كانوا يتقافزون حولي كأنهم جوقة مهرجين مبتذلين لا يجيدون إلا الحركات السخيفة. لم أعرف هل هي نزوة فضول أخذتهم أم شهوة تشفي، وهم يرون جسداً غارقاً في سكونه، جامداً كتمثال لا يقوى على الالتفات يميناً ولا يساراً، فغدا كوحيد في عالمه، مهدماً صامتاً كالأموات، لم يترك له الدهر عضواً سالماً؟ لكنني في الحقيقة كنت أكابد في بؤس مدقع شيئاً مستهجناً لا منجى منه سوى ختام الموت، مع ذلك يقال له الحياة.

أقاسي عذاباً مراً، بل كل صروف العذاب وأنواعه التي يمكن ان يحسها جسد بشري. عليَّ أن اتحمل هذه المعاناة من أجل أن أبقى حياً لا لأحيا، بل للبقاء متيقظاً حتى أسام عذابات جديدة لم تزل تنتظر دورها لتذيق

جسدي من فنون سطوتها. لم يكن أمامي سوى الاختيار بين الأوجاع وأن أركز تفكيري كالمتصوفة وأغرق في تأمل شديد وأختار الانغماس في أحدها كي أنسى الآخر منها. إذ أنها السبيل الوحيد لإبطال إحساسي ومغادرة جسدي.

سددت نظراتي إلى السقف طويلاً، أرمق ظلامه الحالك بتخيل جامح. كان لتلاشي معالمه واضمحلال ملامحه في موجة هائلة من العتمة أمرٌ مؤثرٌ للغاية، أنزل وقعاً غريباً في نفسي، ألهب خيالي معه. بدا مثل ليل بهيم طمست فيه الأنوار، وغربت فيه النجوم وأفل قمره لأبد سرمدي خالد، وكنت كلما أطيل النظر والتمعن في تفاصيله المندثرة؛ يتحول إلى مزيدٍ من فراغ مبسوط إلى اللانهاية، وكأنه ثقب أسود يمتص ما يجوب في ذهني حتى صرت في عدم وخواء تام وانقطاع كلي عمّا يدور حولي، بل أصبحت في عالم ووجود آخر.

ارتجاج جسدي جراء الهرولة بالحمالة العرجاء كان يزيد من اختلاط مشاعري وتزاحم خواطري إلى حد تلاشت فيه قدراتي تماماً على التمييز فيما بينها. لم أعد أعرف هل عليَّ أن أفرح لنقلي إلى المستشفى توقاً للظفر برعاية آدمية لأول مرة منذ سنوات، والمداواة من عطل

تام أعيشه عبأ نفسي بالسأم والضجر، أم أن أحزن وأتألم لفراقي صحبتي في السجن الذين رغم الحرمان المدقع والبؤس المميت كانوا يسهرون على خدمتي بأمور أشك أن أحداً على هذه البسيطة يمكنه إن يفعلها بهذه الأريحية والاندفاع! هل عليَّ أن أخشى مما يخبئه لي المستقبل، ولربما كنت أساق لحمامي، فقد تجد الزمرة المحيطة بيّ أن لا مبرر للاحتفاظ بي أكثر مما فعلوا حتى الآن، أم أنها رحلة إلى عتبة استرداد الحرية من جديد؟ لم يكن هاجسي من أن تكون رحلتي هذه هي النهائية نحو نقطة المنتهى والفراق الأبدي في غير موضعه، ولم ينبت من الريب والحيرة التي كنت واقعاً فيهما، حتى يقال إنه ثمرة تداعيات بلبلة واضطراب نفسي، بل كانت حقيقة واقعة أكدتها أنباء سمعتها لاحقاً، ففي اليوم نفسه الذي كانت تلك العربة العرجاء تسير بي في هذا الممر المعتم، كان هناك عنصر أمن يقرع الباب على أمي.

وقف على عتبة باب البيت الخارجي رجل أبيض بدين مكتنز الجسم مجعد الشعر بوجه حليق ينظر لوالدتي بعينين حادتين كأنها عيني ذئب، ثم دخل مسرعاً إلى صالة الضيوف من غير استئذان بعد تعريف مختصر بهويته. من فم صغير يخفي لثة حمراء تعاني على الأغلب

من التهاب وشراهة التدخين خرج لها خبر إعدامي. بدأ يوصيها (يا لخرقي، وهل هؤلاء يوصون) بل كان يأمرها بأن لا تذرف عليَّ دمعة وألّا تخنقها عبرة، أو أن تظهر أي سحنة من ألوان الحزن، ولو بلبس الأسود حداداً. كانت تومئ له بالإيجاب، بينما في الحقيقة كانت تحاول أن تبتلع دهشتها وصدمتها وهمهمات الروح المتعبة بأداء آلام الجسد المتهالك من المرض المزمن. شبح القلق والخوف ظلا يطوفان عليها، ولم يفارقاها لا في ليل ولا نهار، بل لازماها أكثر من ملازمة ظلها لها حتى رأتني بعد سنوات حين أقبلت علي لتقبلني مثل جائع حرم من الزاد والشراب وفجأة يجد نفسه أمام مائدة فرشت بالأطايب.

إذن لم أكن مرتاباً بلا معنى، بل تخوفاتي لها ما يسوغها، وإن بدت متمردة على التبرير. مع زوبعة الفوضى هذه التي كانت تدور في رأسي كإعصار، لم يبق لي مفر ولا منجى من تلاطم الخوالج والشكوك سوى العودة إلى قول مأثور "لا تفكر لها مدبر". طالما سددت لهذه المقولة سهام النقد والتعييب، وخلعت على مروجيها قباء التقريع، واتهمت خلانها بالاتكال على التقاعس والضعف عند قلة الحيلة، بل حتى لم أشح

عليهم بالتهكم والسخرية حينما أصف مستهزئا واحداً منهم: يبدو أنه من دواعي سروره أن يكون في هذا الوضع، وأنه لشدة خيبته وقنوطه بلغ حداً من الاستهتار فزين النازلة التي ألمت به ببرقع قدسية بلهاء، ولعجزه راح يختلق حيلاً وينتحل أعذاراً ويلفق أكاذيب، فرغم وجعه وما أثخن به من جراح، يتصرف كأنه نال مكافأة أو ظفر بأعطية وبركة.

في ذلك اليوم، اكتشفت أني كنت من يستحق هذه السخرية، فلم أعد أملك سلاحاً أمضى فعالية من أي شيء آخر يتيسر بيدي لأشهره بوجه الجلاد والمرض، غير هذا التوكل، وعلمت أنه درع مثالي عليَّ أن أرتديه رغم ما فيه من طوباوية. أوجست احمراراً يحتقن في وجهي خجلاً مما كان مني بجهالة عمق دلالة هذه الحكمة، وكيف كان لها فعل السحر في تجريد لبي من كل ارتباط بدنيا قد أترعت قلبي باليأس والإحباط، دنيا جرعتني حسرات الألم، ولم تختط أمامي سوى مشهد الجزع، وما تركت لي من رجاء أرنو إليه غير البرم والتأفف، فكدت أطوى على دجى ليل غاش. التعويل على الله وحده، لقنني كيف يمكن للإنسان العيش في دنيا متقيحة بالمرارة والوجع بلا همٍ ولا فاقة، ولا يضره إن

جاع يوماً أو عري، وكيف ينتقل إلى حال من السلام والطمأنينة كلما عنت الزمان عليه نكداً، بل يتصاعد صبراً.

كم من كلمة نحسبها بسيطة متواضعة لا مغزى لها وفحوى فيها، ونعدها هذراً ولغواً صبته ثغور ركبت في جماجم لا تحوي غير عقول ساذجة، ولكن ما أن نمعن النظر فيها نراها تختزن عرفاناً قضينا دهراً طويلاً في البحث عنه، بل أننا كنا في واقع الأمر نبحر بعيداً عن شاطئه ونغطس في ظلمات بحر الجهالة ويم الغفلة، فيما كنّا نحسب أنفسنا بخداع نرجسي عاشق لذاته، أنّا نقعد في الجنان متكئين فوق أرائك على شواطئ المعرفة وضفاف أنهار الحكمة، نتفيأ ظلال شجرها الوفير. وما كنّا في الواقع إلا أتياه في هيماء صحراء الرعونة، وبراري النزق، والخرق، والعته.

هذا الإيمان الصوفي، على ما أوقظه في نفسي من قرف، حتى أخذتني شفقة بها لما أضاعت من سالف عهدها، إلا أنه أخرجني من دجنة الأحزان، وبه ذقت الجَلَد القشيب الذي حلق بفؤادي إلى عنان السماء. به أيضاً تلاشى الهم من حياتي، وعليه اتكأت أطأ أنكاد الدنيا بنعليّ مع أني بتُّ حافي القدمين منذ أن ركلني

الشرطي حمزة على رأسي، وسلبني نعالي الشطراوي الذي كنت أتوسد عليه. ما أن لمح ألوانه المزركشة وشغله اليدوي من جلد طبيعي فاخر حتى سال لعابه عليه، وأدرك أنه سوف يبدو غاية في التأنق حين يرتديه. لقد كان محقاً في بداهته ومصيباً في الإعجاب به، إذ أني بالفعل كنت قد اشتريته من أفضل سراجٍ في مدينتي بخمسة دنانير ومائة فلس قبل ثلاثة أيام فقط من اعتقالي. وهو مبلغ كبير جداً آنذاك حتى لحذاء فكيف بنعال! فعلت ذلك لأحاكي به الشيوخ وأثرياء الخليج وهم يتبخترون بانتعاله. كان يثير جنوحي لحيازته حرصهم البالغ على اقتناء أمثاله. شعرت بالحنق لسلبه لممتلكاتي بهذه الطريقة الوقحة حتى وإن كانت مجرد شيء يحتذى؛ فاعتمل الغيض في صدري، وكاد أن يطفح بصرخة في وجهه، لولا أني تذكرت أني بارحت العالم إلى عالم آخر، وهويت في لجة جب سحيق للتو، ورسبت في ظلمات لا أعرف أين قرارها.

# ٤

***

في الزنزانة السادسة عشر في القسم الثاني المكرس للسجناء السياسيين المتهمين بالانتماء لأحزاب وتنظيمات المعارضة، زارني الشلل لأول مرة. أول من فرش له فسطاط الضيافة وزيّن له دار الترحاب كانت فقرات عنقي، ثم بدا كما لو أنه نافد الأناة مستعجلاً لبلوغ كل بوصة في هيكلي النحيل. عدوى الاحتفاء به سرت في كل مطرح يحل فيه مثل حمى صرعة رائجة يلتقفها متهورون تتسلط عليهم أهواء جامحة؛ فما أن تطأ مرارته جزءاً من بدني حتى يزخ عليه خدر شامل. لمست فيه رغبة عنيفة للتحكم المطلق بيّ، جعلني أفقد الإحساس بأي مؤثر خارجي تدريجياً، ثم وجدت نفسي بعد فترة قصيرة مفتقراً للاستشعار بأغلب أعضائي، وصارت علاقتي بها كما لو أنها أشياء قد تعثرت بها في سوق مكتظ أو علقت بي بعد اجتيازي مزرعة موحلة، فعادت لا تمت لي بآصرة مطلقاً، بل صرت أشعر بثقلها

وتحدوني رغبة للتخلص منها. تلاشى أثرها ولم أعد أفقه علة وجودها، لا أقدر على تحريكها ولا أعرف ما الذي يدور خارجها، عطلت تماماً ولم تعد تتجاوب مع أي شيءٍ مطلقاً. استبقيت كنفس هائمة، ولولا أني كنت أتقوى على النطق والرؤية لقلت إني عشت روحاً بلا جسد.

لم يخف الأمر من مطلعه على أصدقائي في الزنزانة، وهذه لفظة ثانية أسف عن استخدامها فانه خليق بيّ أن أقول حيث ورينا في العالم السفلي ورأينا نبوءة الشاعر بدر السياب عن سربروس يعوي في الدروب في مدننا الحزينة المهدمة، يملأ الفضاء زمزمه، يمزق الصغار بالنيوب، يقضم العظام ويشرب القلوب. عالم ليس فيه ولا حتى خرم واحد يرشح منه أو يتسرب إليه شيء من الوجود الآخر. نزل الإحباط والقلق على رفاقي، وهم يرون الموت يتمادى عليَّ في بطء ثقيل، ومهجهم لم تزل تنبض بعنف من كلمٍ فاغر ليس بطويته الالتئام يوماً، درج على تغييبنا واحداً تلو الآخر، يجذبنا إلى هاوية النسيان باطراد ثابت لا تثقله كثرة من ضمهم في دجاه ولا تحجبه آهاتنا ومكابداتنا المستدامة.

أمام كل هذا آثر "صادق زين العابدين" أن يبادل نكأ الجرح بمضغ الصمت مع الخفر المدججين بالطيش والمتلبسين بالدموية، يبادلهم الصخب والصراخ عسى أن ينعش ذاكرتهم بواحد من حقوق البشر الذين لم نعد محسوبين عليهم. تناسى آلام بشرته المتقرحة جراء تفشي مرض الجرب بين السجناء، ولم يحفل بما حل بجلده الذي ضارع في امتقاعه اصفرار القنديل المعزول المدلى في سقف إسْوَدَّ من الظلمة والوخم. جميع من أقام في تلك الجبانة الآهلة واصل الانصهار، إنما بوتيرة متسقة خداعة ألفتها الأبصار، وأرضتها بأن الأمور لم تبلغ شفير الانقراض بعد، لذا لم يصبهم الفزع كما حفزهم مشهد خمودي الواجم المسرع.

تصاعد الفزع سريعاً إلى غضب واقترب من تعدي جدار الوجل ونزع محاذير العقل في درء سعار عناصر الأمن ساعة اشتداد اغتياظهم. الحديث عن العقل هناك وعن محاذيره يبدو نوعاً من العبث، فهل يجدي العقل في حال كهذا، وما الذي يُخشى عليه أكثر مما نزل وسوف ينزل بيَّ عاجلاً، وبهم لاحقاً؟ تهالكي المتعجل أثار حفيظتهم؛ فشكل ثقلاً مستحدثاً متعاظماً على الجميع، ومن كان يرى صادق زين العابدين وهو يصرخ

مطالباً بإسعافي مع كل مرة يدخل فيها عنصر أمن، يقول بأن هذا الفتى قد انصعق من كارثة أو أن شيئاً مهولاً قد نزل على رأسه، ولذا ثارت ثائرته، وطاش لبه، وذهب صوابه.

لم تبدأ قصتي من هذه الزنزانة ولا في هذا التاريخ، بل في السادس عشر من حزيران من عام ١٩٨٢، إذ خطفت وآخرون من أبناء مدينتي الشطرة إلى مديرية الأمن العامة من دون أبصارنا في دجى ليل سيكون كوننا المؤبد. ليل سلخ منه النهار للأبد، وبتنا فيه معتمين لا ندرك سبيلاً للخلاص من ظلمته. خرت آيته المعجزة ولم يعد يهبط بدلاً عن الشمس حين يقرر قرصها الاستراحة، بل غشانا بلا انقطاع ولا يفكر بأن ينجلي ساعة ويخلي سبيلنا من ديجوره الماكث. فهمت مبكراً بأنه قد كتب علينا أن ندخل في بؤس مدقع لا مختتم له سوى التلاشي. أذهلني فناء النور واندثار آثاره، فما عدت أجد بصيص ضوء، ولا أرى إلا محيطاً من غيهب مترامي الحواف يتمادى إلى شفا الكون الآخر. فقدت أعيننا سمة البصر، وصارت جميع الأشياء ظلالاً تنتقل في العتمة تزعق بأعلى صوتها: إنه رمس قد طمرنا فيه، مهما بدت الحركة فيه تحاكي الحياة. من يومها أضحينا نفترش الغبار المعفر

برائحة الدم، ونتدثر عتمة ممر لزج متسخ تفوح منه رائحة العفن في الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العامة، بعد أن صففنا على شكل طابورين، وقد ربطت أعيننا بالخرق وأوثقت أيادينا إلى أنبوب حديدي مثبت على جانبي الممر.

دخل الرائد "عامر" يمتطي صهوة العتم ويحذوه رهطٌ مسعور يرتدي جلباباً من الدناءة والدمامة والفحش، قاءه ألفاظاً أشدّ نتانة من رائحة البراز، ثم أنهى خطبته كما لو انه كان مكلفاً بمراقبتنا بعيون يقظة ساهرة، وأن عليه أن يحسن إلينا ويربينا، ولكن عليه قمعنا واضطهادنا في الوقت عينه.

- أنا لا أملك هنا معلفاً تلتهمون فيه وتشربون، بل أريد اعترافات، ومن لا يعترف سأبعث به إلى مضمار الرمي ليعدم بالرصاص فوراً.

لم تكن الخرقة قد أحكم صرّها على عينيّ، لذا كان يتاح لي رؤية المشهد وافياً بمجرد أن أرفع رأسي قليلاً، من دون أن يلمح ذلك أحد، فتيسر لي رؤية إيماء رأسه صوب "رحمن حسين جلود"، ابن مدينتي الشطرة، وأبصرتهم وهم يسحبونه إلى غرفة التحقيق. بعد دقائق محسوبة سحبوه سحلاً والدماء تتفصد من سائر جسده

الذي ينتفض من رجفة ساقيه. ثم خرج من بعدهم الرائد وهو يزعق بأعلى صوته:

- إلى مضمار الرمي حالاً.

استحوذ الهلع على فؤادي من مشهد رحمن المضرج بالدماء، وبدا لي كأنما كل فتحة في جلده قد أضحت نبعاً ينزف دماً عبيطاً بلا مهاودة ولا انقطاع. الفزع مما حصل لرحمن أثار فيّ شهية، بل شبقاً للموت أو العوق، وتمنيت أن أكون في قعر شط الشطرة، كما ابتلع الكثير من شباب مدينتي حينما كانوا يسبحون فيه، فذكراهم لم تزل ماثلة في ذهني، ورسومهم تشبه حلماً لا يبارح مخيلتي.

كنت طالباً يافعاً في المرحلة المتوسطة حين التقيت يحيى في مكتبة الشطرة العامة لأول مرة، ومن يومها صرنا نتبادل الأحاديث السريعة الخالية من المضمون، كما يفعل كل الأطفال. كنّا نظن أننا سوف نبقى خالدين للأبد كما هي أحلام الصغار الذين لم يتعرفوا على الموت بعد، وفي لحظة جاء أحدهم يقص عليَّ خبراً لم أفهمه، لقد اختفى يحيى في قاع النهر ولن يرجع للعب معك. موته صدمة أفزعتني كأني گلگامش يسمع بموت أنكيدو، لذا بكيت بمرارة، وحلّ بيّ الأسى، وخفت من

الموت؛ فهامت روحي وصرت أناجي نفسي إذا ما مت ماذا سوف يكون مصيري؟ أما اليوم فغدت أمنيتي أن أكون حجراً غائصاً في أي نهرٍ من الأنهار خير لي من بقائي حياً في منزل هذا الجلاد المتعسف المتعجرف بكبريائه المتغطرس.

## ٥

***

محوت كل الأشياء من ذهني، ولم أعد أفكر بشيء آخر سوى الخلاص من هذا التحقيق المرعب، إذ بدا أنّ لي ما يريدون فعله هو إكراهي على اتهام أبرياء ظلماً. خرجت زمرة منهم تسحب "رحمن" إلى ما ظننته وقتها أنه ساحة الإعدام، ولم يتبق من الجلادين سوى شرطي يدعى علِيّ والرائد عامر. أحسست لوهلة بالأمان متعكزاً على قلة عديدهم المتبقي، وظننت أني سوف أنجو من خطرٍ رهيبٍ كان يتربص بي. امتلأ كياني بفرحٍ غريزي محض، وفي ذات اللحظة لعلع صوت مدو يشبه الهزيم كأنه صاعقة نزلت على يافوخي، فالرائد لم يزل يغلي لعدم اعترافي وبطء التحقيق معي. انفجر على مرافقه لإثبات سطوته ولإخراج أبعد قسوة يتوافر عليها في قرارته.

كان الشعور بالأمان وهماً مخيفاً، مثل رؤية الأشباح التي مع أنها خيال كاذب، لكنّها تخلّف آثاراً مريعة قد

تؤدي إلى الموت كما يفعل السراب بالسائر نحوه، أو بمن يبصرها كما ترسخ الخوف والرعب في أذهاننا وسكن قلوبنا من الطنطل والسعلوة عندما كنّا نسمع "احفيظ الشافك ماتت جنحانه" فوصل الحال بنا حينما ننظر في الظلام يتراءى لنا شبحٌ ابيضٌ طويل يتحرك هنا وهناك، ويظل يراودنا في منامنا على شكل كوابيس مرعبة. هذا الإحساس الزائف بالأمان لو قدّر له أن يبقى معي لدقائق أخرى لأعمى بصيرتي وفتك بحقيقتي، ولنكسها إلى مسخ دميم مشوه مقرف لما تبقى من عمري، إن كان ما سوف يتبقى بعدها يستحق أن يسمى حياة. انتبهت ساعتها إلى عمق هذه المكيدة، برهة مميزة فارقة تصير الإنسان على مفترق طرق بين أن يبرر عيشه مع الأوهام والتخاريف بذرائع تافهة أو أن يحيى مع حقيقته الأصيلة كما ينبغي له.

هل رجاء المداومة على الحياة والتماس الأمان يبرر للمرء أن يشعر بالغبطة لهلاك آخر؟ وبأي ميزان صار وجودي يفضل وجوده، وبأي معيار ينبغي أن أحزن وأفرح؟ هزأت من عقلي ومن تفكيري، بل ومن كل شيء تعلق بي، مع أنه كان أمراً يبدو خارج السياق. قد يبدو أمراً غير معهود أن ينظر المرء في داخله بهذا العمق وسط

تلك الفوضى العاصفة. قد يظن البعض أنه إسراف في الاهتمام بأشياء تافهة لا قيمة فيها، أو لا أسبقية لها وقتذاك. إلا أنه لم يكن بشيء يسير لا يستحق الذكر والاعتبار، بل هو على العكس من ذلك تماماً. فهو يقدر أن يُصَير الفرد في طرفة عين واحدة مخلوقاً أنانياً ضنيناً شحيحاً، أو آدمياً حقاً يحفظ جوهره الإنساني. في تلك اللحظة، إنسانيتي هي الشيء الوحيد الذي بقي لي من والديّ، والأشياء التي تبدو تافهة في نظر غيري لم تكن كذلك في نظري، لأنها كانت ستردي بي إلى حضيض الكرب والتعاسة وتزرع في داخلي قنوطاً مستداماً.

غمرني شعور بالعار من تلك الغبطة الغريزية التي جلبها لي سَوق نظيري في الإنسانية وأحد أبناء مدينتي إلى الموت. احتقرت مساق نفسي التي تبتغي تجريدي من مشاعر الرأفة والرحمة، واستبدالها بالقسوة والجفاء. مَثُلَت حقيقة انفعالاتي المرّة عارية مجردة أمامي، فاذا كان موت أحدهم يتيح لي شعوراً بالأمان للحظات، فهل يجعلني ذلك أصبو لأن ينزل العذاب بغيري كي أنجو منه؟ يا إلهي، كيف بلغت الجرأة بي أن أفكر بهذا الطور من الأنانية وأن أبلغ هذا الحدَّ المرعب من الاستئثار وحب الذات؟ وهل حقاً كنت أضمر كل عشق الذات

وهذه النرجسية كلها في داخلي، حتى صار الموت عندي فرصة للفرح، وأضحى ذكره المزعج بصيص الأمل الذي تدخل الحياة منه؟ أي وهم هذا الذي كنت على وشك أن أُدفن فيه والذي أحال هلاك أمرئ عندي شعاعاً بهياً يضيء الحياة؟ أليس الموت غاية الحياة، وإنه ينتظرنا جميعاً، فكيف أفضى بي تفكيري إلى كل هذا الميل والعوج وأنا غافل عنه؟

# ٦

***

حشرونا في أقبية حالكة لنتعفن فيها ببطء وتتفسخ أجسادنا ثم نفطس، أرادوه لنا برزخ احتضار يطيل أمد المعاناة ولا يسهى عن أحدٍ منّا، وأن يحظى بكل بوصة من جلودنا المهترئة بسياطهم، ويسري من أخمص أقدامنا العارية إلى ذرى هاماتنا التي لم تعد عالية، بل أضحت بمتناول جزمهم العسكرية الضخمة. استعدت بعثرتي وشددتها صرة واحدة في نجوى صامتة، قرعت بها بوابات السماء. كانت تبدو كعاصفة بوق الملائكة في أرجاء العوالم تجهر فيه بخسف الأرض وطي السماء: إلهي أنت الوحيد الذي ينصت لي الآن، إن كنت خالقي وفاطري حقاً الذي يريد الخير والهناء والنعيم لي، فأنت أمام خيارين إما أن تسكن بي الموت وتخلصني من عذابهم، أو تنزل بي عطلاً أتدرع به من شرهم، أتضرع لك صادقاً مخلصاً ألا ترميني في جحيم الإقرار المزيف

فاسحب لهذا الشقاء مضطهداً جديداً يموت مغبوناً مثل رحمن أو يتوجع مثلي.

إلهي أنت الوحيد في هذا الوجود الذي لا يصبه الطرش حين أهتف ولا يشيح بوجهه عني حينما يبصرني أتعذب ألماً. أنت صاحب النعيم والجحيم فأنقذني من لظى الذلة والمهانة ومن فتور الهمة والتراخي ومن سعير الخزي والعار، ولا تجري على لساني ما يبقى عالقاً عليه فأظل أمضغه حنظلاً مراً إلى الأبد. لا أريدك أن تجترح أعجوبة خارقة وتطلقني من أسري، ولكن خذني إليك إما هالكاً فانياً أو معوقاً. ألا ترى كم أنا قنوع ولست جشعاً، ولا أطمع منك بالكثير؟ إنما مهلاً، لأني أتحدث إليك بكل الصدق، فلا أستطيع أن أدعي إني لا أروم شيئاً إضافياً، بل أريد شيئاً آخر. أريد شيئاً واحداً فحسب، ولن يؤذي أحداً. أريدك أن تلطف بحال أمي فإنها سوف تجزع كثيراً لو علمت بموتي.

تهدج صوتي مرتجفاً، وأنا أرد عن أسئلتهم القصيرة الغاضبة، قبل أن ينهال عليَّ الأثنان المتبقيان بهراوة محشوة بأسلاك نحاسية. قبضتاي مغلولة إلى الخلف، لا أستقوي بهما على تحاشي ضربات متتالية تخر عليَّ كأنها مطرقة حديدية. بعيد لحظات معدودة ألفيت نفسي

متأرجحاً من شماعة غرست في السقف، وقد رُبِطَتْ أسلاك كهربائية إلى ثديي وجهازي التناسلي، بعد أن جردت بالكامل من ألبستي. كان أحدهم -وأخاله الرائد عامر- ينشط آلة لم يتيسر لي معرفتها ولا رؤيتها، فيرتعد جسدي أثر حركتها من صعقة جبارة، فيما آخرون يصدموني بين حين وآخر بصاعق كهربائي يحملونه في أيديهم، والجميع يردد سؤالاً واحداً أعطنا أسماء تنظيمك! وما الذي نقلته إلى الناصرية؟ شعرت بلذع الدماء في كتفي ولم أعد أحتمل المزيد من التعليق، فقلت للمحقق أنزلني وسوف أقر لك بكل شيء، فوضعوا لي كرسياً تحت قدمي.

- تحدث!

- أنا لست منتمياً لأي تنظيم.

أعادوا الكَرَّة معي ثانية، فأزمعت أن أكون أكثر صراحة وأجهر بعدائي للنظام.

- نحن طلبة شبيبة في الإعدادية، ونرى ما يحصل للوطن في شؤونه العامة، لذا نتحدث أحيانا بالسياسة.

- ماذا تقولون؟

- صدام لا يصلح للحكم، والحرب مع إيران خطأ جسيم، وإعلانات قيادة الجيش العراقي زيف، ولا تنقل بأمانة ما يحصل في جبهات القتال.

فردّ عليَّ برفض كلامي رفضاً مباشراً بشكل حاسم، ليوحي لي أنه قد ميز جيداً أن ما أقوله هو من باب التسويف والمماطلة.

- هذا لا يقلقنا، ونحن نعرف أن الشعب العراقي كله يتحدث بهذه الأقاويل، أنا أريد تنظيمك.

لم يعجبه تحايلي ومراوغتي فقرر إفراز المزيد من السفالة والدناءة التي يحملها في جعبته، فقال لزبانيته:

- افعلوا به كذا...... (كلمة نابية)

وبينما كان تيار كهربائي يرج جسدي بين لحظة وأخرى، وإذا بخازوق يندفع في جسدي وهو يلتف ليمزق أغشية القولون فتسيح الدماء من دبري. اتقدت غضباً ولم يعد بوسعي كبته ولا كبحه، فما طرأ عليَّ فاق قدرتي وتخطى جلدي وتصبري على التحمل، فلملمت شتاتي ودفرت بأقدامي شرطي الأمن "محمود" وأطحت به بعيداً عني. لمست فيه المفاجأة أكثر من الغضب فنادى ضابطه:

- سيدي، لقد رفسني.

فانهـال علـيَّ ثلاثـة مـن الجلاديـن بالحـال بالركـل واللكمات، كانوا يتنادون فيما بينهم بأسماء عماد ونجاة وعلِيّ، ولا أعرف هل هي أسماء حقيقية أم مستعارة، لأنهم كانوا في الغالب يتخفون تحت أسماء مختلقة. ثم صاح بهم الضابط انزلوه إلى الفلقة! لم ينصرم وقت طويل إلا وأنا ملقى على ظهري على الأرض وقد أُوْثِقَتْ قدماي والعصي تنهال عليهما. فتح الباب بعد قليل عنصر جديد برتبة نقيب، وأومأ إليهم بيده بإشارة متفق عليها تلقاها من الرائد عامر، فأخذوني إلى غرفة فيها شخصان من المعتقلين، وبدأ أحدهما يحدثني بأن رجال الأمن يعرفون كل شيء، وأنه لا داعي للإنكار، فأنه قد يجلب لي الضرر أو الموت وعليَّ أن أسلم لهم بكل ما أعرفه، ثم أبعدوني من الغرفة ووضعوني مجدداً في الممر.

كانوا يجتهدون لمعرفة صلتي بعلِيّ حنيش الذي التقيت به قبل الاعتقال في مقر عملي. كان قد التمس مني مؤازرته في إيصال كتاب إلى مدينة الناصرية مركز المحافظة، بحكم ترددي إليها استجابة لمطالب رب العمل في جلب بضع تصميمات فنية في صنع الأثاث الخشبي من هناك، إذ كان المتخصص بصناعتها يمكث في الناصرية. لم يكن الذهاب إليها بالنسبة لي شاقاً،

وكان تدبر محلٍ لقضاء الليل هناك إنْ وصلتها متأخراً أمراً متاحاً بالنسبة لي بكل سهولة، لأن اثنتين من شقيقاتي وكذلك عماتي كن يسكنَّ هناك، وهذا ما كان يشجع رب العمل على تكرار طلبه مني منتفعاً من هذه الميزة التي أتوافر عليها دون غيري من العمال الآخرين. أنا أيضاً كنت استثمر هذه الخصوصية، فقد زعمت يوماً أن صاحب العمل أوفدني بينما في الحقيقة إني كنت أسعى لرؤية فتاة كنت معجباً بها، ولكني لم أكن ذكياً كفاية لأعتم على سري، إذ حتى بنت شقيقتي اكتشفت سري وكانت هي وصاحبتها تتطارحان الضحكات وترسلان لي نظرات معبأة بالمكر.

ترددي المتلاحق على الناصرية يبدو أنه هو الآخر حفز "علِيّ حنيش" لسؤاله إيصال ذلك الكتاب، إلا أنه لم يستطع من إيتائي إياه، ولا أرشدني إلى أين أحضره ولمن أقدمه فقد اعتقل بعد لقائنا بفترة وجيزة، ومات تحت التعذيب الشديد، كما علمت بذلك بعدئذ، تحديداً في يوم محاكمتي. حرص المحققون بكل الطرق على معرفة باعث اللقاء به، بعد أن رشح لهم خبر لقياي به عن طريق شاهد عيان في الورشة التي كنت أعمل فيها، فقد رآني يومها أحدهم وأنا أسير معه مبتعداً عن شارع "الشعرباف"

الشهير في الشطرة إلى شارع آخر يقع فيه بيت العم مكي مبارك، الذي يعرف باسمهم لأنهم من أقدم ساكنيه، وفي هذا الشارع يقع باب كبير يؤدي إلى قصر الشيخ خيون كان يعدّ الركن الرابع لهذا القصر. كنت اسميه العم مبارك لأنه ابن عم جدي وكان وجيهاً من وجهاء الشطرة.

تركت الورشة بعد هذا اللقاء، وباشرت عملاً جديداً في موقع لصنع النوافذ وتركيب الزجاج. يبدو أن الشبهات الأمنية قد نمت حولي بعيد هذا اللقاء، واعتقال "علِيّ حنيش" لسبب لم أزل أجهله، ولتركي العمل فجأة مع أنه كان في الحقيقة بسبب شجار مع أحد العمال. في الوقت نفسه كان أبناء خالتي عبد الكريم وفاضل عطية قد اعتقلوا بتهم سياسية قبيل فترة وجيزة. مع أني لم ألتق بهم منذ زمن بعيد، لأنهم يقطنون بغداد. التقاء هذه العوامل، جعلني شخصاً مشكوكاً فيه وصيرني خطراً أمنياً يهدد أمن الدولة بنظرهم، مع أني لم أزاول أي فعل سياسي طيلة حياتي، لا من قبل ولا من بعد.

# ٧

***

هـل يعقـل أن كـل هـذا سـوف يلحـق بـي، لأنـي فقـط التقيـت شخصـاً أراد منـي أن أوصـل لـه كتابـاً؟ فـي ذلـك الوقـت لـم يكـن البريـد يـؤدي هـذه المهمـة فـي مـدينتي الصغيرة، لربما أحد سواي ما كان له أن يصدق أن خطباً سوف يقع قريباً جراء هذه الحادثة الطارئة التصادفية، أما أنا فقد بلغت طور القلق الدائم وشغلتني الهواجس منذ أن سـمعت بنبأ اعتقالـه. الـوطن بأجمعه كـان يمـر بوقـت عصـيب متـأزم ابتـدأ مـن سـنة ١٩٧٩ حـين بـات صـدام الحاكم الأول بلا منازع في العراق، ومن وقتها أخذ كل شيء شكلاً آخراً. بدأ عهده بإعدام رفاقه بعملية مروعة أثـارت الفـزع فـي صـفوف أقـرب النـاس إليـه. كـان نشـر الرعـب عمليـة ممنهجـة جسـدتها حينـذاك سـيارة مـزودة بـأجهزة عـرض متنقلـة. كانـت تجـوب شـوارع مـدينتي الصغيرة، وهي تعرض على جدران المنازل أفلاماً وصوراً لكبار المسؤولين في حزب السلطة والدولة وهـم يساقون

إلى مصير مجهول. سياسة ترهيب تزامنت مع موجة جارفة من الإشاعات التي تتحدث عن قسوة الأجهزة القمعية، وعن قدرتها على التجسس واستراق السمع، وان السلطة تعلم بكل شيء حتى بما نأكل ونشرب وما يدور من أحاديث في بيوتنا ولو كانت همساً.

أثناء الامتحانات النهائية تكون الصفوف خالية لوقت طويل؛ لذا وجد أحد الطلبة فرصة لتسطير شعار ضد نظام صدام حسين على سبورة الصف مما استدعى حضور عناصر الأمن، وتمكنوا من معرفة الطالب بإشاعة انه تم تصوير الكتابة وقد جاءت لجنة من العاصمة خصيصاً لغرض دراسة الخطوط والأفضل لكاتب العبارة أن يأتي ويعتذر حتى تغلق القضية. وهكذا كشف اسم كاتب العبارة الذي نقل إلى مطرح خفي للأبد بقوة الإشاعة والحرب النفسية، ولم تصل بالطبع أية لجنة ولم يحضر حتى محقق واحد. كانت الدعاية الأمنية من القوة على إثارة الرعب حتى أنه ابتكر مثل شعبي يعبر عن وقع الخوف من الأجهزة القمعية يقول: (الحيطان لها أذان.(

كانت تصل الشطرة كل يوم صناديق خشبية مغلفة بالعلم الوطني وفي جوفها جثث لجنود شباب قضوا في الحرب مع إيران التي استعر أوارها آنذاك، أو في صناديق

أخـرى يجـيء بهـا رجـال يتطـاير الغضـب مـن أعيـنهم كالشرر، وهم يسلمونها إلى ذوي المعبأين فيها، مع ركام من عبارات وعيد وتهديد إن ذرفت عليهم دمعة أو أقيم لهـم مجلـس عـزاء، لأنهـم خونـة جبنـاء تركـوا الواجـب فاسـتحقوا القتـل بالرصـاص وعلـى أهـاليهم أن يـدفعوا قيمتـه. تـزامن ذلـك مـع حمـلات اختطـاف الشـباب إلـى معتقل سري كانت تختفي آثارهم فيه إلى الأبد؛ فلا سبيل لنبأ يـرد عـنهم أو يصـل إلـيهم، وإن انـدثروا تحـت سـياط الجلادين فلن تحظى رفاتهم على مأوى تسترخي به في هجعتها الختامية سوى مقابر سود سرية. المحظوظ من يتم قتله غيلة فيؤذن لأهله بتأبينه ودفنه في رمس مثل بقية الموتى.

حكاياتهم كانت أشبه بأفلام بوليوود فمثلاً عبد الأمير الركـابي اعتقـل وبعـد سـتة أشـهر مـن التحقيـق لـم يجـد المحققون شيئاً يشتبه في أمره فأطلق سراحه. خلال تلك الأشـهر السـتة لـم تتوقـف ماكنـة الاعتقـالات، واحـد مـن ضحاياها الجدد لـم يكـن يعـرف بـأن عبد الأمير قد أطلق سـراحه، بـل ظـن أنـه قـد تـم إعدامـه لأن أخبـاره انقطعـت تمامـاً، وأيضـاً لأن الأمـن كـانوا قـد أشـاعوا خبـر إعدامـه. أثناء التحقيق الوحشي لم يجرؤ هذا الرجل أن يلقي تهمة

مسؤوليته في التنظيم على أحد من البشر الأحياء (وهي تهمة مزيفة بالأصل لأنه لم يكن منتمياً لأي تنظيم) فقرر أن يختار حلاً لا ينزل الضرر بأحد؛ فوجد في الركابي مظانه وبلغة نجاته، لأنه ميت ولن يضره شيء إن اعترف عليه. ولكنه فوجئ بعد أيام وإذا به يرى مسؤوله الوهمي يقف أمامه بعد أن أعيد اعتقاله، وليصلب هذه المرة، وتذهب جثته لمدفن سري، كأنما يخشون قيامته في فصح جديد.

لم يكن يجدي حتى الفرار للخلاص من ملاحقة الأمن، وإن كان المرء بريئاً، ولو نفعت أحد لنفعت عباس خضير السماك، الذي اختفى عن أنظار الأمن بعد أن هرب من معتقل محلي غير محصن، إلا أنه عاد ليسلم نفسه بعد أيام بعد أن أوقف والده بدلاً عنه فلم يجد مناصاً من العودة إلى سبيل الموت والتواري للأبد فداءً لعائلته.

لعل "قاسم حسن عبد السايق" كان محظوظاً، لأنه حظي بتشييع وبقبر يزار. بعد اعتقاله بأيام جاء الأمن يطرقون بيت والده بحثاً عنه، لم يجد الرجل جواباً لسؤالهم فهو وإياهم يعلم أنه معتقل عندهم، إلا أنه توجس شراً وعرف أن مرسالهم إليه يحمل شراً غير

معتاد. بعيد برهة ليست بالطويلة جاءوه ثانية إنما بحكاية جديدة مفادها أن قاسم حاول الهرب والاختفاء في محافظة أخرى، إلا أنه لسوء حظه احترقت السيارة التي تقله ومات فيها على طريق خارجي يتصل بالبصرة. حكاية ملفقة لم تنطلِ على الوالد المسكين، فقد كان يعرف أن هذه السيارة المحترقة تعود لسائح كويتي، وأنها احترقت قبل فترة طويلة، كما إن الموت بحادث سيارة حرقاً لا يفلق الرأس بضربة فأس ويحطم الجمجمة ويبقى على الجسم سالماً من الحروق. لم يجد الأب المنكوب سوى القبول بروايتهم مع انه عرف لاحقاً قاتله، بل ومن أي منطقة ينحدر، ولكنه كان زمن، العقاب فيه ليس للمجرمين، بل لضحاياهم.

كنت أتوسل إلى الله يومياً أن يقصي عني هذا الغيب المروع الذي يختبئ وراء حضور الملابس الزيتونية، لأنهم شر محض يختلقون الأعذار ويفتعلون الحجج كي يلقوا بالتهم والشبهات على أي شخص، ويجدون من خرم الابرة منفذاً واسعاً لإلقاء الأذى بالآخرين. في مرة صادف يوم السابع من نيسان يوم تأسيس حزب السلطة يوم العاشر من محرم بحسب التقويم الشيعي الذي في كثير من المرات يتأخر بيوم واحد عن تقويم الحكومة،

ولذا كان من المتوقع أن يتغيب الطلبة في يوم العاشر من محرم لمشاركتهم في مراسم العزاء الحسينية التي تنطلق من جامع الشطرة الكبير حيث مكتبة الشيخ الكرباسي أو من جامع الحاج طعيمة في أوقات النهار، بل حتى في المساء حيث تضاء الشوارع بمشاعل كهربائية تستمد الطاقة من مولد كهربائي متحرك. هذه الطقوس الشعبية كانت تحاربها السلطة، ومنعت لاحقاً وكانت تتعقب أي شخص يمارسها.

كان والدي يدير حماماً وحيداً في المدينة ذا باب كبير يدلف منه المرء إلى رواق طويل يؤدي إلى قاعة كبيرة تعرف بالمنزع، إذ يخلع الزبائن ملابسهم استعداداً للاستحمام، هناك كان يجلس والدي يتسلم أمانات الزبائن ويختار موضعاً لحفظ ملابسهم. كان للحمام باب آخر في نهاية الممر يؤدي إلى ساحة خالية كبيرة لا تحوي غير ساقية صغيرة تتجمع فيها مياه آسنة طوال السنة وتؤدي إلى شوارع فرعية عديدة، من يدخل في أحداها يختفي بسهولة. في أحد أيام العاشر من محرم دخل جمع من المشاركين في أحد المواكب الحسينية وسرعان ما لحق بهم رجال الشرطة ووقفوا عند الباب الرئيس ينتظرون خروجهم لاعتقالهم، لأن الزبائن حسب

العادة الجارية كان يفترض أنهم قد خلعوا ملابسهم. استصعب الشرطة مداهمة الحمام، فقد كان تعامل الشرطة المحلية مع الأحداث في كل وقت يختلف تماماً عن تعامل عناصر الأمن. في الواقع كان المعزون قد خرجوا عبر البوابة الثانية بعد أن أشعرهم والدي بتواجد الشرطة الذي طال انتظارهم ودخلوا الحمام لاحقاً ليكتشفوا الخديعة، مما عرّض والدي إلى تحقيق أفلت منه بصعوبة كبيرة.

لهذا السبب حدد في يوم العاشر من محرم موعداً لامتحان عام يشمل جميع الفصول الدراسية في المدرسة. تنظيم الامتحانات لجميع المراحل ولكل الطلبة في يوم واحد أمر لم يكن ليحصل مطلقاً في أي مدرسة، ولم يكن ليحصل في يوم تأسيس حزب السلطة أبداً لأنه يوم احتفال، لكن في ذلك اليوم أعلن عنه تحت التهديد باعتبار المتغيب فاشلاً لتلك السنة مهما كانت أسبابه أو ظروفه. حضر إلى المدرسة أحد الحزبيين الكبار يرافقه حشد من الملابس الزيتونية، وافتتح معرضاً للصور لمناسبة تأسيس الحزب وسط الهتاف والتصفيق الإجباري، وبدأت الاحتفالات مع مراقبة عدم المتفاعلين

وفي النهاية لم ينظم أي امتحان، لأن الغرض منه فقط كان تعطيل المشاركة بمراسم عزاء الإمام الحسين.

# ٨

***

ما كان يسهدني ويقض مضجعي ليس خوفي على نفسي وحسب، بل الأكثر منه خشيتي على أمي التي أضحت وحيدة من غير مستند ترتكن إليه في مكابدتها عناء الحياة بعد وفاة والدي، وتوجه أشقائي إلى جبهات القتال. حتى أنا أُجْبِرْتُ أن أمضي أسبوعاً كاملاً في معسكر تدريب على السلاح في ناحية أكد (البدعة)، واستلمت مع زملائي طلبة الثانوية ملابس عسكرية تسمى ملابس الفتوة، لكنني كنت أقدر على المغادرة مرة أو مرتين في اليوم اذهب بها لوالدتي، أقضي حوائجها وأرجع للمخيم على دراجتي الهوائية. بتّ أنا الوحيد المطالب بالاعتناء بها، بل ألفيت نفسي مطالباً بمتابعة العلاقات الاجتماعية؛ فقد كان من اللازم أن احضر جميع مناسبات المدينة الاجتماعية خصوصاً العوائل التي شاركت في حضور مجلس فاتحة والدي. فكيف بها الآن إذا اعتقلت؟ ومن سيكون لها؟

بعد فوات كل نهار وما أن يرخي الليل أستاره كنت أتوجه بالشكر لله لأني لم اعتقل بعد. وكانت قد حصلت حملة اعتقالات كبيرة في القضاء واعتقل خيرة أبناء المدينة وكانت صورهم تمر أمامي وانا انتظر اعتقالي المرتقب. كما حصل إلى الأستاذ خضر فرج وأولاد الحاج داخل الساعاتي وشقيق صديقي علاء ثامر الذي كان يحدثني كيف أنهم اضطروا لإحراق مكتبتهم وحتى أشرطة الكاسيت خوفاً من مصادرتها وعدّها منشورات معادية للسلطة. هل سوف يحل بيّ ما حل بعبد علِيّ النجار وولده أو بمدرس الكيمياء الأستاذ احمد نعيم هداد أو المهندس سلام هاشم أو الاستاذ ضياء احمد طه الذي كان يخصص آخر عشر دقائق بعد انتهاء الدرس ليحدثنا في توعية ثقافية. أم سوف ألقى مصير الطالب الجامعي في السنة الأخيرة "نبيل طالب الفراتي" و"علِيّ صلال السائق" و"علِيّ محسن الحداد" وغيرهم ممن تم تغيبهم؟ هؤلاء جميعاً علمت بإعدامهم لاحقاً باستثناء المهندس سلام، الذي أفلت من الموت شنقاً.

هذه الأجواء المشحونة إضافة إلى وصول جثامين من يقضي في الحرب جعلت الناس يمشون على غير هدى من أمرها، فكيف بي وأنا الذي التقيت بشخص معتقل

بتهمة سياسية. كنت أعرف أن سبباً أكثر تفاهة من هذا كان يكفي لاعتقال شخص في مدينتي الصغيرة الملقبة بموسكو أو طهران الصغرى، لأنها كانت تكتظ بالشيوعيين والإسلاميين المعارضين لحكومة البعث. وقتما كان أخي (نوري) طالباً في إعدادية الزراعة، صحا في يوم الحادي والثلاثين من آذار من نومه متأخراً، ارتدى ملابسه على عجل وخرج مسرعاً على دراجته، دون أن يتناول فطوره للحاق امتحانه في ذلك اليوم. كان مدمناً على التدخين كما هو حالي، فاشترى بخمسة وعشرين فلساً قطعاً من الحلويات ليأكلها قبل التدخين. بالطبع كانت تكفي قطعة واحدة لفتح شهيته على التدخين، لذلك أعطى المتبقي من الحلويات لزملائه في المدرسة. في نهاية النهار جاء رجال الأمن لاعتقال أخي، وتم توقيفه بالفعل بتهمة الانتماء إلى تنظيم سياسي محظور، والدليل على ذلك أنه وزع حلوى في يوم تأسيس الحزب الشيوعي العراقي.

صباح يوم السادس عشر من حزيران عام ١٩٨٢ بعد أن أنهيت الامتحانات النهائية كنت أجلس برفقة صديقين لي اعتقلا فيما بعد وتم إعدامهما. كنّا نسخر من أناشيد الحرب التي لا تتوقف عن ابتكار الانتصارات الوهمية،

وفجـأة جـاء رجـلان بهيئـة متوثبـة متحفـزة، وطلبـا منـي مرافقتهما من أجل قياس شباك. ساورني الشك في الحال وأنـا أرى أحـدهم يقـف بـالخلف مني فيمـا الآخـر أمـامي يقيمـان حـولي حصـاراً يرغمني على مرافقتهمـا. لـم تكـن سوى خطوات قليلة حتى تبدد الشك وأصبح يقيناً، بعد أن تقـدمت نحونـا سيارة الأمـن. تـم اقتيـادي لهـا وعصبت عيني في الحال وقيد معصمي إلى الخلف. وضعت في غرفة صماء في مركز شرطة المدينة مع مجموعة أخرى من المعتقلين، لم أكن أدرك خطورة الموقف، لذا طلبت محتجاً أن يسمح لي بالتدخين، وبالفعل رفعت العصابة عـن عينـي وفـتح القيـد عنـي وعـن الآخـرين، واكتشـفت وجـود ثلاثـة أصـدقاء لـي نسـكن جميعـاً فـي محلـة واحـدة اثنـان مـنهم فـي الصـف الثالـث متوسـط، وعرفـت شخصـاً رابعـاً كـان معلمـاً. وبـدأ الحـديث بيننـا يسير فـي متاهـات التخمين، مـن يقـف وراء هـذا الاعتقـال الجمـاعي، ولِـمَ؟ كانـت الظنـون تتجـه نحـو شـخص معـين، ولكنـي آثـرت التريـث حتـى نصـل إلـى مديريـة الأمـن العامـة فـي بغـداد وسوف يتضـح حينهـا كـل شيء. لـم يجـر أي تحقيـق معنـا واكتفوا بجمع معلومات منا عن أسماء جميع من يتعلق بنـا مـن أقـارب، نحـن الخمسـة فقـط، فلـم يكـن هنـاك

موقوفون غيرنا. لم يكن الأمر حتى الآن يثير فزعاً ورعباً، إذ ان ابن عمي ماجد حامد تمكن من زيارتنا بمساعدة معارف له من أفراد الشرطة. بقدر ما سكنت من روعي زيارته حتى أني أوصيته أن يجلب لي في الزيارة التالية عند الصباح سجائر، إلا أنها بالقدر عينه ولربما أكثر قد أثارت مواجعي عن حال أمي فكان سؤالي الأول له عنها. قضيت الليلة متفكراً في حالها بعد أن علمت أن أقاربي نقلوها إلى دارهم بعد ما أصابها من الحزن والجزع، ولم يتبق لي من رفيق يخفف من وجعي عليها سوى النحيب والبكاء. عند الصباح أخرجنا من مركز الشرطة فلمحت ابن عمي قادماً، هممت بالإشارة إليه لكنني صعقت برد من أحد مرافقي من عناصر الأمن بضربة ساحقة على رقبتي أحسست كأنه قطعها بضربة ساطور. بعد أن حشرنا في سيارة بلا شبابيك، مغلقة كأنها صندوق، أخذتنا إلى مدينة بغداد تحت مراقبة حرس أشداء، علمت أن رحلة عذاب من نوع كنت أسمع عنه قد بدأت بالفعل.

## ٩

***

توالى التحقيق معي ومما زاد في تعقيده أني أنكرت في بدايته أن لي أقرباء معتقلين، وزعمت أن لا معرفة لي بعلِيّ حنيش تخوفاً من أن أحسب على أحد منهم. حينما سئلت عنه قلت للمحقق: أن هناك معلماً عندنا اسمه "عبد الأمير حنيش" فهل تقصده وحصل عندك تشابه في الأسماء؟ كنت أحسب أني سوف أضللهم عن معرفتي به بتشابه اسم والده مع هذا الأستاذ، لأنه كان شاباً مرحاً يقضي معظم الوقت في الصف الدراسي بإنشاد قصائد الغزل خصوصاً ما ينظمه نزار قباني، وهو بعيد عن الشبهات، إلا إن تصرفي هذا زاد الأمور تعقيداً، وفاقم من حجم الاشتباه حولي.

في اليوم الخامس والعشرين من الاستنطاق سحبت من جديد إلى غرفة التعذيب يحيط بي جمع من الجلادين. كان الرائد "عامر" يجلس غير بعيد يتناول عشاءه مستلذاً بمسرح تعذيبي وهو في تأنق الشباب ينتعل

حذاءً أبيض بلون شفاف يطلق عليه الصحراوي راجت موضته في الثمانينات، وقميصاً بنصف كم وبنطلوناً من لون مقارب يتجلى فيهما التناغم والانسجام وينشران الجمال على وجهه.

أذكى منظره فيّ الكثير من الخواطر، وأنا أراه للمرة الأولى. فكم كان مشهداً عجيباً! شابٌ مليحٌ حسن الصورة حلو الطلعة، بدا كأنه خارج في نزهة، أو إنه يقعد مع صحبته في سينما أو مسرح يتمتع بمشاهدة عرض فكاهي مرح يشرح الصدر ويدعو للفرح والانبساط. كانت أسارير وجهه منبسطة لأقصى ما يمكنها، جذلاً فرحاً إلى حد أجزم معه أني كنت سوف أغبطه على هذا الانشراح والرحابة، لو رأيته في زمان ومكان آخرين. كيف يمكن للإنسان، وهو بهذه الصورة الجميلة والتقويم الحسن، أن يحمل في داخله كل هذه البربرية الوحشية والقسوة والصرامة في الوقت عينه؟ ما هذا الشيء الذي يحركه ليقرن سعادته بشقاء الآخرين، ويجعل لذته في عذابهم؟ وهل ما يمثل أمام ناظري الآن هو إنسان حقيقي، أم أنه شيء آخر تمثل بصورة مضللة مخادعة؟ لابد أن الله وحده الذي يعلم من هم أولئك الذي يقيم فيهم الشيطان بهذه الصورة الماكرة.

بدأت حفلته عندما أوعز لأتباعه بالهجوم، فتساقطت عليَّ الهراوات كزخات المطر من كل ناحية، خلت معها أن الكون بأسره تنادى على عداوتي. أحاطوا بي كأني ساحرة تزوجت الشيطان، ولا خلاص من شروري بغير الحرق. عرّوا جسدي تماماً كأنهم يبحثون فيه عن علامة الشيطان، ثم صرت أضرب، أجلد، ويحرق جلدي ليس بالهراوات، بل بأجهزة جادت بها عقول بشرية، مجرد رؤيتها تصيب المرء بالإحباط، ويكون على استعداد للإقرار على نفسه، بأنه ارتكب أي جريمة. عالم جبابرة أقوياء يملكون كل شيء، يضايقهم وجود الفقراء، يزدريهم ويحتقر سكنهم وإياه في مكان واحد إلا أن يكونوا له عبيداً أذلاء، ومن يتمرد ويفكر بأن له حقاً في الحياة لأنه إنسان، ينبغي أن يصلب مع اللصوص وأن يجلد قبلًا، وأن يزين رأسه بتاج من شوك، ويلبس رداء أرجوان سخرية، ويساق إلى الذبح كشاة.

لحظة تستحضر أخرى تناظرها، تدافعت الغيوم نحو الخواء المتبقّي في القبة الزرقاء، ترسم أشكالاً سوداء مخيفة. كسفت الشمس الآيلة للغروب، وفُتحت بوابات المطر فتدفق غاضباً مزمجراً، واندفعت السماء تصبّ ميازيبها فوق بيتنا الطيني ذي السقف المصنوع من خشب

البواري. خوت الشوارع وتسرّب صمت مبلول في أرجاء قصبتنا، ولم تبق كوى منفرجة على بداية الليل، خلا فرن محاذ لبيتنا احتجز المطر أصحابه، ومنعهم من العودة إلى بيوتهم. خرجنا مع إيغال المساء نلتفع البرد، باحثين عن ملاذٍ يقينا البلل. أسناني تصطك من الخوف أكثر من البرد الذي زاد ارتجافي، وجعل أصابعي تنضح منه؛ فأمست عاجزة عن الإمساك بأشياء فرّت معنا خوفاً من سقوط السقف فوق رؤوسنا. كنت ابدّلها بأصابع اليد الأخرى، وأُدخل الأولى في عبّي، منتظراً الطبيعة أن تتراجع عن حصارنا، لكنّها أبت إلا أن تتقن تطويقها لنا.

وقفنا تحت سقيفة خارجية بمدخل المخبز لائذين عن سقف منزلنا الذي تقوض، وانهارت معه غرفتان كانت تطلان على فناء خارجي مفتوح. العمال وصاحب الفرن رقّوا لهيئتنا المبعثرة التي عبث بها المطر ففتحوا أبواب المخبز لنا كي نتفادى الموت من جديد. ننتظر من السماء أن توصد أبواب غضبها وتطفئ تنورها الفائر، كي أبدأ وأشقائي جولة جديدة من مصارعة العوز والحرمان، في مسعى جديد لمواصلة البقاء على قيد الحياة.

اليوم تتساقط عليَّ حمم تنطلق من براكين ثائرة هائجة، لا ملتجأ أستجير به منها. غضب آلهة مجرتي المستحدثة

مثل جهنم غضبها يتضاعف كلما أكلت حطباً صاحت هل من مزيد؟ تعالت صرخاتي مع كل ضربة هوت على جسدي الصغير بأعلى ما يمكن لها أن تعلو، لتشق عباب الصمت المخيم في ممرات مديرية الأمن، وتخرق سكون الجدران الصماء، ولكنها كانت تستفز "أنليل" الذي أزعجه ضجيج البشر فقرر أن يتخلص منهم بطوفان غيظه. أستغيث بالعدم وأتمسك بالوهم وارتشف السراب، أدور في الخواء وصوتي وحده يعلو مرتفعاً بلا انتهاء، ثم فجأة حل سكون هائل.

همد صوتي، ولم أعد أشعر بضرباتهم. لم يبالوا بذلك، بل ثابروا على جلدي ولم يبدر أي رد فعل أو استجابة مني، رغم أني لم أكن غائباً عن الوعي. كان يمكن بسهولة ملاحظة ذلك، فأنا أرى وأسمع وفي الوقت نفسه بتُّ عاجزاً عن النطق والاستشعار والحركة. اعترتهم الحيرة لوهلة من الزمن بما يجب فعله بعد أن تيقنوا من تعرضي لإصابة بالغة جراء ضربة وقعت على فقرة في عنقي. التعذيب لم يعد مضراً ولا معنى له، فقد صار الألم ترسي والوجع درعي. غادرت جسدي، ومضيت في نسيان كل شيء حولي. تركت جسدي عندهم، وذهبت لبعد آخر خارج حدود الزمان والمكان، حاملاً شكري

وامتناني لله على استجابته العاجلة لدعوتي، قد نجوت، ولن أسبب الأذى لأحد سواي.

لم يتبق إلا أمنيتي الثانية وهي أن ترفق السماء بأمي، فهي النار التي ما تكاد تخمد حتى تصب ذكراها وقوداً في قلبي فتضرمه ضراماً لا تعرف السكينة معه سبيلاً إلى نفسي، كأني أجلس على موقد أو مشواة. لم أعر اهتماماً مفرطاً لما آل إليه خطبي، مع أن وجهي قد التهب من حماوة البكاء، وذبت وجداً وأسفاً، وكان قلبي يخفق بعنف، ولكن ليس لأمري، بل لوضع أمي، فهي شجني القشيب الذي أحمله بين الحنايا والضلوع. صوتها العذب عذوبة الناي لم يزل يرن في أذنيّ وهي تناديني، بصوتها الحنون الشجي كأنه همس بجوار مدفأة في ليالي الشتاء. أما الآن فأصيخ بسمعي فلا ألقى من قصبة نايها إلا نفخة مفجوع منكوب، وألمح أنفاسها مثل أنّات المذبوح تأتي إليّ من آخر الكون حيث تسكن هناك في أقاصي الوجود لتقض مهجعي وتسهد أيامي ولياليها وتؤرق عينيّ بملح شقائها. فؤادي قلق مهموم، جوانحي وجوارحي: ترى هل تراها ذاقت برد المعين أم تناولت مأكلاً مذ يوم حجبت عنها؟ ما الذي حلَّ بها؟ تركتها مريضة تراجع وفق

مواقيت منتظمة يعيّنها الطبيب كمال السامرائي في مستشفى الإشعاع الذري في بغداد.

قبيل ستة أسابيع تقريباً من اعتقالي، كنت عائداً مع صديق من نزهة على الأقدام ترويحاً عن النفس (بالمناسبة فقد بلغني اعتقال هذا الصديق فيما بعد واختفى أثره للأبد)، وحين الإياب طرقت باب بيتنا كالعادة، إلا أنه ما أن رأتني أختي وإذا بها تحتضنني وتتساقط عليَّ بالقبل. أثار صنيعها استغرابي، إذ رأيتها كمن يشعر أنه على بوابة مغادرة حياة آمنة هادئة مطمئنة ليركب مبحراً في رحلة غامضة مجهولة. ما أن توغلت في باحة البيت حتى وجدت نفسي أمام منظر أكثر غرابة ومأساوية. والدتي تجلس على الأرض مهشمة الأعصاب مرهقة تخرج أنفاسها شهقات عصبية متشنجة، مزقت صدري قبل أن تخرق رئتيها. شفتاها ترتجان وجسمها يرتعد، ولا يصدر صوت من انفعالها سوى آهات وكلام متقطع وشهقات صماء. نهضت بثقل رغم لهفتها لتضمني، وراحت هي الأخرى تقبلني بنهم، مما ضاعف حيرتي. انقبض قلبي، وصرت بحاجة لأن أقبّلها قبل أن أسمع سبب هذه الفوضى العارمة. علمت لاحقاً أن شخصاً ما جاء وأخبرهم، بأن رجال الأمن قد اعتقلوني.

أخذت والدتي تضمني إليها في قبل طويلة تمزق قلبي، كأنما تلوعها فكرة الانفصال، وهي تترجاني، بل تتوسل بيّ ألا اذهب ثانية إلى الجامع، وان أبقى طيلة حياتي ما بين أضلاع مثلث البيت والمدرسة ومقر عملي. رأيت وضع والدتي المرير حينئذ، فبكينا معاً وعجز تفكيري عن أي شيء، وشعرت بأن غيبتي في نزهة المرح راعتها كثيراً، فمقتت ساعة فرحي وهنائي. انصرمت أيام عديدة قبل أن أستعيد هدوئي وأعيد النظر إلى الموقف بشكل واضح وأعرف أسبابه. كان وراءه دوافع شخصية لإخافة والدتي ببواعث العداوة ولا علاقة له بالسلطة، إلا أني أدركت بعد هذه الحادثة أن كل شيء بات عندها غائماً متلبداً، واختلط الترقب عندها بالتخيلات، والرجاء والأحلام بالخوف.

ضاعف وضعها المريع اعتقال أولاد خالتي في بغداد (كان أحدهم زوج أختي) بعد أن أشاع الأمن بأنهم سينبشون بيوت أقارب كل معتقل، مما اضطرّنا حينها لتجفيف مكتبتنا من مجموعة كبيرة من الكتب كانت تحسب من المحظورات المشددة، بينها مؤلفات لمحمد باقر الصدر وشقيقته بنت الهدى، ونقلتها ليلاً في جراب عند إحدى العوائل مؤقتاً مثل بضائع مهربة ينبغي أن

تُوارى بعيداً عن الأعين، ثم تتلف لاحقاً، مع أنها لـم تكـن سـوى روايـات وكتـب اقتصـاد وفلسـفة لا دخـل لهـا بالسياسـة، أمـا بنظـر السـلطة فكـل كتـاب كـان قنبلـة، وكـل مثقف كان عدواً خائناً عميلاً حتى يثبت العكس.

# ١٠

***

تـم إخلائـي مـن حجـرة التحقيـق مسـلوباً مـن أي قطعـة ثيـاب بشـكل كلـي، بعـد أن أرغمـوا أنـاملي الغائبـة عـن الـوعي على الإمضـاء على أوراق خضـر، كتب في أعلى إحـداها جملـة "استـمارة إطـلاق سـراح". ومـع ذلـك فلـم يكن بالوسع معرفة ما دون فيها، إلا بعد أشهر في محكمة الثورة حين التقيت أبناء مدينتي من جديد. ويبدو أن ذلك كـان جـزءاً مـن إجـراءات صـورية ينبغـي لهـم إتمامهـا لأغـراض إداريـة روتينيـة، لأنـه بعـد التوقيـع ألقـي بـي مـن جديـد فـي الـدهليز المظلـم واُلقـي فـوقي باحتقـار وازدراء كسـاء لا أعلـم عائدتيـه. كنـت عـاجزاً عـن ارتدائـه، لـذا لـم يعولوا عليَّ لفعل ذلك؛ فطلبوا من معتقل لم أتعرف على هويته كان مقيداً إلى جواري، أن يلبسني إياه.

اعتراني ألـم عـارم في رقبتي منذ انكفائي على وجهي فــي دهليــز الأمــن العامــة، ســكن فــي تجاعيــد جلــدي المنكمش من البرد والجوع، وأنغرز في الأوردة وسرى

في عروقي وشراييني ليودع سمه في بدني، كشفت عنه تغضنات وجهي الذي شاخ وهرم في أشهر معدودة. في الساعة الأولى لدخول سجن أبي غريب، قدم لي أحد السجناء شظية من مرآة لا أعرف كيف حصل عليها، إلا أني حينما نظرت فيها رأيت وجهاً يشبه شبحاً يتراءى في الظلام كأني عجوز طاعن؛ فعرفت كم أصابني من الهرم. كنت أبدو باهتاً مصفراً شاحباً شحوباً فظيعاً، تدل ملامحي على أني أعاني ألماً هائلاً، كأني خارج من عملية جراحية موجعة. اشتهيت أن أصرخ بأعلى صوتي، إلا أنه اختنق في حلقومي. لعلعت صرختي المكتومة في أحشائي كتأوه المفجوع وتردد صداها كالموج بفزع هادر صاخب، ضجت أرجائي منها متطايرة مبعثرة ممزقة تطيح بها من كل صوب، كما يمزق دوي هزيم الرعد سكون هزيع ليل ريفي هادئ.

أرعبني الشحوب والهزال والعيون التي غارت في المحجرين وجفناي وهما يرتجفان كأنهما عصفور أصابه البلل. أين أنت يا أمي تعالي لصغيرك وأنظري إلى خدّيه اليابسين كيف جفّا وخسفا، وتطلعي جيداً في هذه الغضون الفتية الدقيقة حول عيني، لا تغرك يا أماه دقتها! إنها لم تكن من قبل، وما هو صغير الآن سوف يتنامى

سريعاً، فما ترينه هو ثمرة الهموم والمخاوف والخواطر التي يضج بها رأسي. كما كبرت همومي وأحزاني بهذه العجالة سوف تكبر التجاعيد، وحتى البياض سوف يتناثر على شعري قريباً، لا أشك في ذلك. مع ذلك يا أمي لا تبتئسي كثيراً، فأن أي شخص بعد هذا التعذيب كان ليبدو كذلك. لست وحيداً فيما حل بي، انظري يا أماه إلى هؤلاء الشباب المحيطين بي، أليس حالهم كحالي؟ كلنا غرقى في يم الإهمال والنسيان ومنبوذون في قاع الوحدة والعزلة. انظري يا أماه لهذا الشاب مطرق الرأس وإلى ذاك الآخر وقد جمد يديه على ركبتيه في سكون تام، كما لو أنهما قد شلتا، ولذاك الرجل الثلاثيني المستلق وقد برزت من تحت الخرق الرثة التي يرتديها خطوط جامدة تحاكي الموت في صمتها، لا يختلج منه عضو وحتى لا ينتفض للأقدام التي لم تتوقف عن الارتطام به. أليس لهؤلاء أمهات مثلك، وأليس هم شباباً مثلي؟ تشجعي يا لمستي الحانية والدفء الوثير الذي الجأ إليه حين يعصف بي البرد وارفقي بحالك وحالي، فروحك هي سكينتي وأنت زادي من الجوع ودفئي من البرد.

ثلاث سنوات من ضربة الدهليز وحتى شللي الكامل في تموز ١٩٨٥، لم أبه فيها لآلامي، وتعاملت معها كأنها

أمر واقع، وإن فعلت فمن كان هذا الذي ينبغي أن أشكي إليه؟ لا أحد من هؤلاء الجلادين والعسس المحيطين بي الذين فطروا على الغلظة والفظاظة كان سيلقي لي بالاً، أما من أفترض أنه يملك عاطفة إنسانية، وأرجو أن يهتم لحالي فهو سجين عاجز مثلي لا يحوز بلغة يومه، ولا يجد ملاذاً لمعاناته ولا مفراً من همومه وآلامه. كنت أبدو بمظهر المقتدر على المقاومة ومتابعة البقاء على قيد الحياة، بالمقابل كان هناك آخرون بحال أردأ من حالي، فلماذا إذن أترجى أو أطمع بأن أحظى بعناية ومبالاة وأفضلية بينما غيري مفتقر لها؟

نقلت في المعتقل إلى زنزانة جماعية، ولجتها وأنا أحمل حزوزاً على ظهري وفي رأسي، وأخاديد على وجهي خضبت كلها بالدم، حفرتها عصي ذات أسلاك نحاسية. المفاجأة أني وجدت "رحمن حسين جلود" فيها لم يقتل رمياً بالرصاص كما خمنت حينها، بل في حال عسير أكثر تعقيداً. كان مسجىً بقامته الطويلة على بطانية رمادية رقيقة، وجراح ظهره تنز دماً ببطء. اضمحلت بدانته ودُرِسَتْ معالمه وفني جسده تماماً، وخارت قواه فلم يعد يقوى على استعمال أي من جوارحه. خبت سائر أعضائه، ولم يعد ينبعث منه إلا آهات الألم، ولا ينبض

في عروقه سوى الوجع. كل ما كان مرئياً منه تحول إلى خيال أو طيف مستمر التلاشي في موج ليل لم تشفع كل طهارة قلبه في إزاحة عتمته. اختفى كل شيء من صورة المعلم ابن الأسرة الشطرية المرموقة، ولم يتبق من ملامحه غير دماثة خلقه وأدبه الرفيع، لا يقبل الانفكاك عنهما. أخذت ألتهم بعيني كل حركة وسكنة تصدر منه، وتملكني خوف لا اسم له ولا أستطيع وصفه. تلاشى أي وزن لآلامي، وذهبت أمالي أدراج الرياح بأن أحظى بأدنى نصرة في تطبيب آلامي وانا أرى القسوة والإعراض، واسمع صوتيهما يرجعان مع صدى كل نداء يوجه للحرس يشكو فيه حال رحمن المتزعزع. إجابة واحدة صارت مألوفة كلازمة نشيد مدرسي:

- إن مات أخبرونا، ولكن قبل ذلك إذا كررتم هذه الضجة فستعرضون أنفسكم للعقاب، وقد تموتون قبله.

كان في الزنزانة طالبان يدرسان في كلية العلوم جامعة البصرة أحدهما اسمه راجح وهو شاب طويل القامة أبيض البشرة، والآخر يدعى ضياء كان بالضد منه أسمراً قصيراً، الهدوء سمته الطافحة، إلا أنه يجتمع معه في مستوٍ عال من الأخلاق والأدب والإباء والشمم؛ لذا أحجما عن طلب النجدة من الحرس واستعاضا عنها

بلهفة متدفقة للخدمة. كانا يعكفان على خدمته بتفانٍ عجيب والابتسامة لا تفارق وجهيهما ومن ينظر إليهما حينها يخالهما خدمة بررة له. ينشطان بكل ما أوتيا من قوة وموهبة، ويقدمان له ما تحت متناولهما. يؤكلانه بيديهما، ليس لأنه بات أوهن من أن يفعل ذلك وحسب، بل لأنه لم يعد يستسيغ مذاق أي زاد. كانا يبذلان جهداً جهيداً في تغذيته وحمله على القبول بحاجته للطعام، إلا أنهما كانا يقتران عليه الماء، ولا يرويانه إلا القليل منه تخوفاً عليه. يوماً في ساعة لن تزول عن ذاكرتي أبداً، بينما كانا يمسحان الدم عن جسده المتهاوي المضنى نظر إليّ متضرعاً بعينين شبه مغمضتين أفترهما النعاس، رنا إليّ بنظرة كليلة متعبة يستعطي جرعة ماء.

- علاوي، أعطني ماء، أليس إخوانك أصحابي؟

كأنما الماء قد غيض، والأرض ابتلعت ماء بحارها ومحيطاتها بأكمله، فمحلت وأجدبت ونبت في عموم أصقاعها الجفاف. لم يبق في الكون بأسره من عين تنبض بالماء سوى التي خرج منها دمعي، ذرفته حامياً أشد من سخونة تموز ولهب آب. لم يكن أحد يقوى على سقيه، لأن الماء كان يؤذيه لكثرة جروحه النازفة، ومع ذلك تبددت عندي هيبة كل النصائح الطبية، فلم أستطع أن

أتجلد أكثر مما فعلت؛ فسألت راجحاً باستعطاف وحزن اعتصرا فؤادي، بل مجموع كياني، وقد غصت عيوني بالدمع أن يرشف شفتيه بقليل منه. استجاب لتوسلي. ارتشف رحمن بضع قطرات ثم أغمض عينيه، ولم يعد بعدها يسهل على أحد التمييز، هل هو غاف أم يقظ؟ فجأة انتبه من رقدته وصاح، افسحوا المجال، أريد أن اخرج! تنحوا جانباً ألا تسمعوني؟

- إلى أين أنت رائح، وهذا الباب مغلق والمفاتيح عند الحرس؟ سأله راجح.

- أي باب مغلق؟ وعن أي حرس تتحدث؟ أنا ذاهب إلى بستاني ذاك ألا تراه؟ انظر لتلك المائدة المدبجة بأنواع الفواكه! وأبصر بذاك المقعد المخصص لي! أنا ذاهب إلى هناك، لن يمنعني أحد، هذه جنائني وأريد أن اذهب إليها لأرتاح. لم يكن يتكلم، بل زمجر منفجراً بصوت صاف، إنما بحزم راداً على اعتراضات راجح، وأبصارنا تحدق به في دهشة وذهول. في لحظة صمت رهيبة كان يحدق في أفق كشفته له السماء ورآه ببصيرة. اخترق الجدران الصامتة والمسافات الضيقة لينطلق إلى أفقه الخاص. الموت ليس غياباً في عالم سحيق، بل هو

انطلاقة إلى فضاء مطلق حيث تصنع فيه الحياة ويعاد ترتيبها بعيداً عمن أرادوا عزلها في تلك الجحور الضيقة.

# ١١

***

ألـمٌ بغيض لف كل شيء في الزنزانـة، وبدت لـي أن جدرانها تنضح فداحة النحيب وعذاب القلق الـذي لفنا بعد الاحتضار البائس المريع. هكذا ودعنا رحمن ورحل لروضته غير آبـه لاعتراضـاتنا ولا متهيباً مـن الحـرس المـدجج بالقسوة والسـلاح، ولـم يعبأ بكثرة الأبـواب المؤصدة، أما نحن ففضلنا أن نقطن بين حيطان الزنزانة الصفر، تحت فيء رعبهم نخشى سطوتهم ونهاب قسوتهم، منهمكين في ترتيل سورة الفاتحة وما كنّا نحفظه من القرآن بصوت خافت. كان لكل شخص منّا حكاية لم تزل تُكتب أحداثها، تتصارع مشاعرنا مع ظروفٍ أجبرتنا في أن نكون لا كما نشاء ونحلم، وباتت أمنياتنا تخوض معارك طاحنة مع مزاجية حاكمة وعبثية تتحكم بالمشهد بنحو مطلق، وننتظر صداماً حتمياً واقعاً لا محالة.

كنّا نحلم بالنصر، ولكن الهزيمة صارت جزءاً من واقع علينا أن نتقبّله أمام جبروت فرض عنفوانه علينا وأخضعنا لظروفه، وعمل غاية ما في وسعه وأقصى جهده كي يرمينا إلى هامش التاريخ. أذاقنا طعم عيشة قاسية لا عدل فيها بالمطلق، نواجه فيها بطشاً ينال منّا ما ينال، ويختطف عنوة أي لحظات راحة حتى لو كانت شحيحة تسكن في قلب الليل. قساوة لم تمنعنا من مواصلة الأحلام، لأننا عشنا الأمل بأنها واقعٌ وليس قدراً، ولا بدّ أن نتحايل عليها لنظفر بالذي نريد ونحافظ على إرادة الحياة والأمل في المستقبل. لم يكن أمامنا إلا أن نكون أقوى من كلّ الظروف والصعوبات، فالحياة إمّا أمل تعيشه أو ألم يفتك بك. أول ملامح التحدي كانت في تحدي حظر الكتابة.

أخذنا نجمع أغطية أقداح اللبن من السليفون التي توزع علينا ونجعلها قرطاساً نكتب عليه بقلم نصنعه من عظام نختارها بعناية من وجبة العشاء التي تقدم فيها دجاجتان، علينا تقاسمها. أضحت الكتابة أمراً متاحاً وحتى الحرس يعلمون به، ففي إحدى الليالي مثلاً كانت بيدي مجموعة من هذه القراطيس السليفون وانا اقرأ فيها، وإذا بأحد الحرس يمشي خلسة ولم نشعر بقدومه؛ فصاح بي: ما هذا؟ لم أجد بداً من تسليمها له. أخذها مني وهو

يتوعدني بعقاب قريب لكنه لم يعد بعد ذلك، ونجوت من العقاب، ولكن لم يغب عن ذهنهم تداولنا لهذه القراطيس الممنوعة.

في أحد الأيام جيء بشخصين اعتقلا من خارج العراق، مكثوا ليلتين فقط معنا في الزنزانة، ثم أخذوا إلى جهة مجهولة، ولكن عاد إلينا الأمن بعد دقائق وأوقفونا في ممر بين الزنزانات بعد أن أوصدوا الكوة الصغيرة في الزنزانات كافة كي لا يرانا أحد، وبدأوا تفتيشاً دقيقاً لم تسلم منه وسائد كنّا نصنعها من قطعة قماش على شكل جراب نحشوه بما يتيسر من الخرق. تناثرت محتوياتها في الهواء، ودلو الماء الذي نشرب منه سفح بما فيه على أرض الزنزانة مع طعام كنّا نخزنه، كل هذا بحثاً عن شيء مكتوب من المحتمل أن يكون قد تركه هذان الشخصان.

المكان يعج بالقصص الغريبة وبأشخاص لا يمكن لأحد أن يتخيل سبباً لوجودهم في معتقل سياسي. وجدت إلى جنبي في ذاك الدهليز يوماً رجلاً كبير السن تعرض لتعذيب قاسي فقط تفتيشاً عن دواعي سفره إلى أوروبا خصوصاً انه كان على تعامل تجاري مع رجل قتل سابقاً من قبل السلطة. كانوا يخشون انه قدم معلومات لمنظمة خارجية. مع أنه أثبت لهم من خلال الأوراق ان

تعامله مع الرجل كان تجارياً بحتاً وانه رجل أعمال يتعامل مع الكثير دون معرفة خلفياتهم الفكرية والسياسية وليس معنياً بالتعامل الشخصي معهم. التقارير الطبية أيضاً أثبتت انه مريض بمرض مزمن يتطلب السفر إلى خارج البلد لتلقي العلاج المناسب، ولكن كل هذا لم يعفه من المرور على غرفة التعذيب وتعرضه لكل أنواع الإهانة والمذلة.

كنّا نعيش في قلق دائم ينتابنا الخوف من المستقبل المجهول، وتغزو أفكارنا الهواجس خشية أن يُنادى من جديد على أي منّا ليأخذ إلى التحقيق ثانية. لا نعرف وقتاً نطمئن فيه من سطوتهم لا في ليل ولا في نهار، ونتوقع الأسوأ ليس بنّا وحسب، بل لعوائلنا هي الأخرى التي لا تسلم من شرهم. في أحد الأيام نودي على عبد الحسين محمد غازي من أهالي كربلاء وهو شاب يافع هادئ صابر على ما وقع عليه من بلاء، إذ كان قد تزوج قبل مدة ليست بعيدة. أعيد التحقيق معه من جديد من أجل الضغط عليه، وزيادة في تعذيبه عرضت زوجته وطفلها الرضيع أمامه. منظر يفطر القلب وهو يرى زوجة شابة تحمل طفلهما، ولا يستطيع أن يسأل عن حالهما. لم تنته المأساة هنا، فقد تلقت الزوجة حكماً بالسجن سبع

سنوات قضت منها أربعاً ونصف يرافقها في السجن لسنتين ونصف صغيرها علِيّ، قبل أن تطالب إدارة سجن الرشاد أن تأخذ الصبي إلى دار الأيتام أو أن ترسله خارج السجن. لم يكن أمامها خيارات كثيرة، وهي المحرومة من زيارة أهلها لإنقاذ طفلها؛ فلم تجد من بد سوى تسليمه لسجينة أخرى تبرعت بإرساله إلى أهلها الذين تقصوا عن عائلة الزوجة الشابة المنكوبة ووصلوا بالفعل إلى خالة لها تسكن في بغداد سلم الصغير لها.

بقي الدمع رفيق أمه تبكي زوجها المغيب وكبدها المقتطع منها، تقتات على همهما وتحترق بلوعة الشوق إليهما. تواري خلف دموعها حزناً مبللاً موجعاً يستعصي على البكاء أن يبرده أو أن يطفئه. تبكي الليل مع النهار لتروي ظمأ حنين جارف لغلام لم تشبع من مداعبته ولم تتعرف بعد على شقاوته. تنتظر الزيارات كي تصل إليها منه صورة ترسمها حكايات ألسن تتناقل أخباره ولا ترى له رسماً ولا عكساً. عيونها ترنو إلى السماء ترجو منها نفحة بلقاء يجمع هذا الشتات، تسأل عن سبب عناء لا تعلم له من حجة، ولو كان لزوجها من ذنب، فهل لوليدها من خطيئة ارتكبها كي يعاقب بالحرمان من حنان والديه؟

## ١٢

***

في نهار يوم تشريني نقلنا إلى المحكمة بعد أشهر من الاعتقال والتعذيب المتواصل، في شاحنة نوع مرسيدس مقفلة كالصندوق. تسير عجولة في طرق العاصمة تنهش الأرض نهشاً، وبين حين وآخر تفرمل فجأة، يرتطم بعضنا بالآخر، ويهوي آخرون على معتقلين يجلسون على أرضية السيارة المعدنية الباردة، كنت وآخرون مكبلين بالقيود، تكتظ بنا عربة خط عليها "عربة مرطبات"، تخلو من أي فتحة مهما تناهت في الصغر. لا يخرج منها صوت، ولا يدخل إليها هواء، بالأحرى لم تكن سوى صندوق أحكم إغلاقه على قلق وعذاب وآهات ترتطم بجدر حديدية باردة. تسير وهي تحمل ثلة آثرت التمرد على الأمان الذي ترفل به السفن الراسية عند الشواطئ، وكفرت بإنجيل الدعة والهدوء والسكينة، وآثرت صخب الحرية والفوضى التي تخلفها عواصف التفكير. وأدركت أن السفن خلقت لتبحر لا لترسو، وأن الريح العاصفة تهز

كروش السحاب المثقلة، وتنتزع منها حبات المطر؛ لتملأ بها الوديان سنابل خير تطعم بها أفواه الجائعين.

وهكذا كانت الرحلة إلى أن توقفت عند بوابة رصاصية عبر سلم من خمس درجات يؤدي إلى قاعة تحت مستوى الأرض بسقف عال تتوزع فيها أكثر من مصطبة وضعت باتجاهات متعددة متشابكة، طليت بلون أخضر داكن يشبه لون مخافر الشرطة. كثرة هذه المقاعد وتشابكها الغريب الذي ينم عن سعة استيعاب، إلا أنه لم يشعرنا بارتياح حتى ولا للحظة واحدة، فإنها لم تكف لجلوس الحضور الكثيف من المعتقلين الذين ازدحم بهم البناء الغريب بانتظار تدابير المحكمة الصورية. منذ أن تلاشى صوت الحياة في الخارج، أدور في هذه الدهاليز التي اختفى فيها نور الشمس، وتداخل فيها الليل بالنهار، إلى الحد الذي ما عاد بمقدوري، لا أنا، ولا أحد من رفاقي على التمييز بينهما. كثيرون غادروا من ذلك المكان إلى أعواد أرجوحة سكنهم شوق قديم لها، تعلقت أجسادهم بها، وقفزوا منها بمرح الأطفال إلى عباب بحر ظلمة قاتمة تخيم على أفق اصطبغ بلون أحمر. بزغت شمس خلف هذا الأفق، وبانت لهم بأبهى

ما لها من جمال كما لم يروها من قبل أبداً، وهل هناك لحظة أجمل من انقشاع الغشاوة وتواري الأوهام؟

توزعنا على كل بقعة تتسع لجسم آدمي بين جلوس ووقوف. لم نحفل بزمهرير الإسمنت، لأنها المرة الأولى منذ عدة أشهر نجتمع بهذا العدد الهائل بلا قيد يكبلنا ولا عصابة تغطي أبصارنا. وجوه صفر شاحبة بأجسام شوهها التعذيب في وضع صحي متهالك واضطراب نفسي. جميعهم حفاة وأغلبهم لا يرتدي سوى دشداشة خلقة لا تخفي شيئاً تحتها ولا يستر رثاثتها، إلا إن المشهد لم يخل من عدد ليس بقليل كان متماسكاً صلداً ذا شكيمة، كأنه يحمل قلباً من فولاذ يتحدث عن أمنية عمره: الموت شهيداً، يتبدى الإصرار على محياه ووجهه يشع عنفواناً. نظرات متبادلة وابتسامات ترتسم على الوجوه حينما تلمح العين وجهاً تعرفه، وأنباء عن معتقلين آخرين لا أثر لهم (مثل علِيّ حنيش الذي قد قضى تحت التعذيب) تتسلل خفية بمنأى من الحرس المنتشر في زوايا المبنى وعند البوابات مدججاً بسلاح معبأ للانطلاق.

بعد ساعات من انتظار ضجر ومجهد دخلنا إلى قاعة المرافعة، ثم حشرنا جميعاً في قفص خشبي صغير، إلا عجوز هرم طاعن في السن اشتد عليه المرض، وبات لا

يقوى على الوقوف؛ فأمر الحاكم العسكري بمقعد له خارج القفص. أبدان متلاصقة تنبعث منها رائحة الموت، وأوصالها ترتعش من البرد، ومع ذلك كان العرق يتصبب منها في لوحة سريالية تلخص الفوضى الشاملة وغياب السنن والقوانين في هذا العالم. ما أن ولجت إلى القاعة حتى لمحت لوحة علقت خلف الحكام العسكريين الثلاثة كتب فيها "العدل أساس الملك". لخصت حقيقة العالم أمامي ساعتئذ، عالم يخفي قبحه بزخارف عبثية ويطمس الحقيقة بزيف التخيلات وكذب الأوهام. سيطرت عليَّ رغبة عارمة في التلاشي إلى العدم، وهاج بي شبق لأن أفقد القدرة على التواصل مع كل الأشياء، وأن أتخلى عن البصر والسمع.

واصلت النظر بسكون، صمت في الخوالج والأفكار وليس في اللسان وحسب، وهو قد منع من الكلام سلفاً. لا أفكر بشيء، وبماذا عساي أن أفكر؟ هل بقي هناك من شيء في هذا العالم يستحق أن أرهق رأسي في التفكير به؟ هل أفكر بمستقبلي مثلاً، الذي لم يعد موجوداً، بل غادر إلى الماضي، مختفياً تحت أكوام ضباب تخريف أحلام الصبا. أي عدل هذا الذي يكمن وراء هؤلاء؟ إن لم يكن ميتاً مثل كل أصنام الآلهة، لما علق على حائط.

لو كان حياً يقوى على النطق ويسير في هذا العالم لسأل لماذا نقف أمامه حفاة الأقدام بأسمال رثة بالية، لا نجد من يمثلنا في الدفاع عمّا اتهمنا به زيفاً؟ أحسست بعوز وحاجة لفأس إبراهيم كي أنهال به على الأصنام الثلاثة بملابسها العسكرية وعلى القداسة المزخرفة وأكوام الحطام فوق رهط دخل يرتدي جلباباً أسود كأنه سرب غربان يبحث عن فطيسة. استهل حديثه وختمه بانه لا يستطيع الدفاع عمّن حاد عن جادة الصواب وغدر بالحزب والثورة، وأنه يترك الأمر لعدالة المحكمة التي حرضها الادعاء العام على إنزال عقوبة الموت بنا وقطع رؤوسنا لأننا خونة عملاء.

قرأ القاضي من ورقة أمامه موجزاً لإفادة مكتوبة، ملخصها إن أحدهم فاتحني بالانتماء لتنظيم محظور، وأني وافقت على عرضه، بل غدوت أدفع بدلاً شهرياً لدعم هذا التنظيم قدره خمسة دنانير، وأني ساهمت في فعاليات تهديمية من توزيع مطبوعات وأفعال أخرى، كل واحدة منها تكفي لرفعي إلى حبل المشنقة. رفع الحاكم بصره وسألني بماذا تدلي من تعليق على نشاطاتك الإجرامية الهدامة؟ بماذا عليَّ أن أجيبه الآن، وكل ما كُتب ليس لم أدل به وحسب، بل ولم يسبق لي أن سمعت به،

ولا حتى خطر على بالي يوماً حتى في الرؤيا والأحلام!
لو سألني كم تبرعت لأي تكتل سياسي طيلة عمرك؟ لقلت له: درهم واحد فقط. قدمته لمسؤول حزبي حينما كنت في الدراسة المتوسطة، وهو كل اشتراكي في السياسة، إن صدق ذلك المسؤول الحزبي وبعثه فعلاً لحركات التحرير الفلسطينية كما ادعى وقتئذ. دفعته له لأتخلص من إلحاحه عليَّ بالانضمام لحزب البعث، لأن هذه الأشياء كانت ستعيق انشغالي بعملي، الذي يبدأ بعد خروجي من المدرسة مباشرة.

عملٌ فرضت الظروف عليَّ مزاولته، كي أعين به عائلتي، بعد أن أعجز المرض والدي وجرده من قواه كلياً، ولم يترك له حتى بصره. أما في عطلة نهاية الأسبوع فقد كان عليَّ أن أسافر إلى بلدة أخرى قريبة لمتابعة شؤون شقيقتي نيابة عن والدتي التي تردى وضعها الصحي وباتت تقاسي من مرض مزمن. كان والدي يدير مع شريك له فندقاً في السوق الرئيس في المدينة، وفي أحد الأيام احترق الفندق وحاول والدي أن ينقذ ما يمكن إنقاذه دون جدوى، ولكن النار كانت أسرع منه وحاصرته فاضطر للقفز من علو على أسطح المباني المجاورة لينجو من مطاردة النيران، ولكنه لم يفلت من

المرض الذي هده بسبب أصابته والخسارة المادية التي لحقت به، ومن هنا بدأت حكاية مرضه الذي أعجز ساقيه وأحدب ظهره وأفقده بصره تدريجياً.

لم ادخر شيئاً مما كنت أجنيه كي يسنح لي أن أعطي أحداً سوى تكاليف حج تزمع أمي القيام به. لم يكن فائضاً، بل كان ادخاراً شاقاً عملت عليه لأحقق لها رغبتها الأثيرة، ومع ذلك فإنه صودر من أجهزة الأمن أو نهبه واحد منهم. عائلتي مجهدة مادياً، وأمي مطالبة بتربية أطفالها ولا معيل لها، فلم يتبق أمامي، أنا وأشقائي إلا أن نختبر كل الأعمال من أجل أن نوفر قوتنا اليومي، وإن كنّا لم نزل على كراسي الدراسة. كنت لم أزل طالباً للتو أنهيت دراستي الابتدائية واضطررت مع ذلك للالتحاق بالدراسة المسائية كي اعمل نهاراً بعد أن أصاب العمى والدي الذي غادرنا إلى أرض لا إياب منها في الشهر العاشر من عام ١٩٨١. عملت في مهن متعددة لا يجمع بينها شيء سوى رغبتي في إعانة عائلتي المرهقة مادياً. تارة أبيع العلك في الكراج الكبير الذي يسافر منه المسافرون إلى بغداد وغيرها من المحافظات، وأخرى في نجارة، أو ثالثة في تركيب زجاج شبابيك المنازل.

تجولت بين البشر وبين العربات سعياً وراء أي درهم، بل فلس أجنيه. أيام المرح واللعب كانت تتلخص في ركوب دراجة هوائية أذهب بها إلى أحد سدود الماء في منطقة البدعة مع أصدقائي. كان الطريق لذلك السد المائي الذي يبعد ما يقارب أربعة كيلومترات من الشطرة جميلاً خالياً من الإسمنت والطابوق الذي شوه وجه الطبيعة، تحيط به الأشجار بمحاذاة النهر. كم كان خلاباً الجلوس على ضفة النهر هناك نتأمل في النواعير التي تحركها الحمير في حركة دؤوبة لسقي المزارع الواسعة، ومشهد قفز الأسماك في التيار المنساب بوداعة ولا تفسد فرحتها، إلا محاولتنا اصطيادها ولحسن الحظ لم نكن نفلح في ذلك كثيراً.

كانت تزداد متعتنا حينما يغور ماء نهر الشطرة لسبب كنت أجهله، فننزل نعالج الطين الطري المترهل بحثاً عن قطع معدنية ردمت فيه. تشرق أساريرنا فرحاً، ونملأ الفضاء بصرخات جذلى، إن عثرنا عليها. لم يكن في الشطرة أماكن كثيرة للنزهة سوى سينما واحدة ومرقد ديني للعباس ابن الإمام الكاظم تذهب العوائل إليه في المناسبات الدينية وعطلة نهاية الأسبوع يعرف بين السكان المحليين باسم (أبو گلة)، لأنهم كانوا يتناقلون

قصة أسطورية عن مجموعة من ثوار ثورة العشرين لاذوا بالقبر حينما طاردهم الإنجليز فكانت رشقات الرصاص تتحول إلى طين فلا تؤذيهم.

لم يكن لي في طفولتنا ألعاب كثيرة ألهو بها سوى كرة القدم التي لها قانون خاص يشرع في لحظتها ويسنه صاحب الكرة، لأنه لم يكن بمقدور كل أحد حيازتها. وحينما نفشل في إقناع صاحب الكرة نلجأ إلى الكرات الزجاجية الملونة (الدعبل) أو الأكثر رخصاً الچعاب دعبل الفقراء.

عملي عند الحاج جبار جعفر والسيد طعان مع ما حظيت به من تعاطفهما لم يخفف من معاناة صباي، ليس لأن هذا السيد الوقور المبجل فقد أولاده الأربعة. في عصر يوم كنت أعمل في محل نجارة رأيت سيد طعان يمشي باتجاه بيته وئيداً متمهلاً منكس الرأس، تبدو عليه علامات السهو هائماً شارد الذهن غير حافل بما حوله، تشيعه عبارات استرجاع بألم وحسرة من صاحب العمل: إنا لله وانا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. أسكت فضولي فقال: هذا السيد رجع من دفن أولاده. الأمن أبلغوه أن يأتي يتسلم الجثث، ويدفنها بصمت. كان أمراً مأساوياً محزناً ومروعاً أيضاً، إلا أني

لـم أتحكـم بانفعـالاتي فـذهبت مـع قريـب لـي كـان يعمـل معـي "مـلا راضـي" وقـدمنا لـه التعـازي والمواسـاة لا نأبـه لنظر جواسيس رجال الأمن وما أكثرهم وقتئذ.

في نهـار اشترى السيد طعـان وجبة مشويات، وبعثني إلـى داره لإيصـالها لقرينتـه أثنـاء غيابـه عـن البيـت. كنـت طفـلاً صـغيراً، أحـب أن أتسـلى كسـائر الأطفـال، ولا أجـد متعة ألهو بها غير السير على حافة الرصيف المرتفعة عن الشـارع، أثـب مـن واحـدة لأخـرى متعـدياً المسـافات القصـيرة المفرقـة بينهـا، وأحيانـاً الطويلـة. شـعرت بخـيلاء ونشـوة فـرح لتـوالي نجاح قفزاتـي البهلوانيـة، وإذا بيّ فـي غمـرة زهـوي وعجبـي ببراعتـي أفقـد تـوازني وأقـع فـي الشـارع علـى ذراعـي. مـا كـان فـي يـدي، كلـه صـار علـى الأرض. تصـورت جـام الغضـب الـذي سـوف يصـبه علـى رأسـي السـيد طعـان، ممـا ضـاعف الألـم الفظيـع الـذي شعرت به، وأنا ملقى على وجهي في مياه راكدة آسنة. أعانني بعض المارة على النهوض، وانطلقت مسرعاً لأمي باكيـاً، لـم أكـن بحاجـة لأن أقـول شـيئاً، فقـد تكفلـت هيئتـي المرتبكـة بـذلك. ومـا علـق بثيـابي ووجهـي مـن آثـار المـاء الآسـن والطـين ينـم عمّـا حصـل لـي. قبضـت علـى ثوبهـا، وتعلقـت بـه بشـدة، وأنـا أقـول لهـا إنـا خـائف مـن العـودة

للعمل، سحبتني من ذراعي؛ فزادت من آلامي ووبختني على فعلتي، إلا أني كنت على يقين أنها لن تعاقبني. أنفقت جهداً يائساً في حملي على القبول بالعودة لسيد طعان، وإخباره بالحكاية. لم أفعل لأني كنت خائفاً بشدة وأبكي بغير إرادتي. اضطرت والدتي للذهاب إلى عقيلته "أم سامي" تعتذر عن طيشي؛ فزارنا في المساء السيد طعان وداعبني قليلاً، وقال لي لا تهرب من الخطأ، بل تعلم مواجهته. الهروب من الخطأ سوف يفاقم هزيمتك، ويزيد من حزنك وآلامك. شعرت بسعادة عظيمة، وزالت الحمى الخفيفة التي أصابتني، وارتفع الألم عن ذراعي، لأن الأمر قد مرّ بسلام.

## ١٣

***

لصغر سني ورأفة وشفقة من المحكمة بي، فقد حكمت عليَّ بالسجن المؤبد مدى الحياة ومصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة. فوجئت قليلاً بقرار الحكم، لأني كنت أتوقع الإعدام. الأمور كلها نسبية ولا ضير في لعبة السعادة، فمن يفقد ساقاً عليه أن يشكر حسن حظه لأنه لم يفقد ساقين، ومن يرَ الموت ليلتئذ يفرح بالسخونة؛ لذا استبد بي انشراح ورغبة في المزاح، فقلت مصطنعاً التأثر: يا لسوء حظي سوف يصادرون دراجتي الهوائية. لم يكن الكل بمزاجي الرائق، فالتفت لي أحدهم، وقال أي دراجة هذه التي تتحدث عنها!، لقد صادروا البيت الذي تقطن فيه عائلتي لأنه مسجل باسمي؟ لم أجد غير الاعتذار لدعابتي التي جاءت في غير محلها سوى كلمات اعتذار وأسف ومواساة للرجل الذي اضطرت عائلته فيما بعد أن تستلف خمسة آلاف دينار ثمناً لشراء دارها من مزاد نظمته الحكومة تنفيذاً

لحكم المصادرة. رغم ذلك فإن موجة من الضحك استبدت بيّ كأنه دفاع لاإرادي مجنون أراد أن يخفف من وقع الخسارة ويلهيني عمّا حدث للتو.

بعد صدور الأحكام تم نقلنا مغلولين بالقيود إلى الخلف كالعادة، إلا أنه لم تعصب أعيننا هذه المرة، مما حفزنا إلى استعمال خدعة مشهورة بين المعتقلين بنقل القيد إلى الأمام. وصلنا إلى ساحة السجن الخارجية، وهناك تسنى لي قراءة لافتة كبيرة كتب عليها (مدرسة إصلاح الكبار) فقلت في نفسي أي مدرسة هذه؟ وماذا سوف نتعلم فيها وقد جردت للتو من كتبي ورحلتي. تم إدخالنا في غرفة تختلف عن أي زنزانة مررنا بها من قبل، يدخلها نور كثيف ويمكن التمييز جيداً منها لأول مرة بين ساعات اليوم ومعرفة الصباح من الظهيرة، والعصر من المغرب.

داخَلنا تفاؤل كبير إلى حد ظننا فيه، وأنا منهم بالطبع، بأنهم سيمنحوننا ألبسة جديدة بدلاً من الجلابيب المتسخة المهترئة التي نرتديها. توالى الحلم الساذج يطوف أمام عيني، وتتراقص بفرح أمامها أمنيات مغشوشة بلغت حد الحصول على فرصة للاغتسال بالصابون وربما نحصل على ليفة لتنظيف أبداننا مما علق بها من الوسخ

طيلة الشهور الماضية. التفاؤل وارتياح الأسارير الذي بدا على قسمات وجوهنا، فرقه نداء غاضب، بل زعيق قاس بصوت مبحوح أجش على أحدنا، يدعوه باسمه الكامل للذهاب إلى غرفة أخرى بجدار ملاصق للتي كنّا فيها. سأله شرطي ضخم الجسم مفتول العضلات حاد النظرات مجدداً عن أسمه الكامل وعنوانه، ثم أردفه بسؤال عدائي مثل أحجية لا حل له:

- ما الذي ورطك بهذا العمل؟

الجواب كان مستحيلاً، فان صرح ببراءته انهالوا عليه بالضرب وانصبّ فوقه أقذع السباب بتهمة ازدراء الدولة واحتقار العدالة، إذ كيف تحكم محكمة الثورة العادلة على بريء بالسجن، وإن أقر بذنبه نال المقدار نفسه من الأذى، لأنه غادر خائن نسى منن الثورة وأفضالها عليه، وطمع في خدمة العدو الغريب. حينما وصل الدور لي، سألني السؤال نفسه، فبدا لي في تلك اللحظة أنه ما من سبيل اعبر به هذا المأزق الجديد، ولا ملاذ لتجاوز مخلوق معبأ بالكره والبغض كالذي يتناهى إليّ صوته الآن، إلا أن أقر له بالذنب وأعتذر في الوقت نفسه، متعللاً بحداثة سني، وأن الذي جرى قد جرى. لم أكن أرجو الخلاص ووطنت نفسي كالعادة على تجشم عناء

عقاب جديد من غير جرم، غير أن ما أثار عجبي أنه ما أن التقطت أذناه كلماتي رفع بصره إليّ ووقف متسمراً يتفرس فيّ مبهوتاً لبرهة ليست بالقصيرة.

أكاد أجزم قاطعاً، بل إني على يقين واطمئنان من أن عمري الصغير وحجمي الضئيل الهزيل ليسا من دعاه للتراجع عن إلحاق الأذى بي، فأنا لم أكن أصغر سجين أو معتقل يمر به ذلك اليوم ولا أضعفهم بنية، ولا كنت نادراً في الأماكن التي مررت بها، فقد كان هناك صبية عودهم أطرى بكثير من عودي، وبعضهم لم يكن حتى قد بلغ الحلم بعد. إذ أنه في إحدى الليالي حينما كنت في زنزانة الأمن العامة، انتابتني هواجس وساورني قلق كبير وشعرت بالخوف مع أنه لم يكن هناك من شيء محدد يستدعي الخوف. لجأت إلى الصلاة في جوف الليل وذرفت دمعاً كثيراً فيها، وعلى حين غرة سمعت والآخرون أصوات مفاتيح وحركة غير عادية لعناصر الأمن، وجاء أحد الحرس وأغلق كوة صغيرة في باب الزنزانة الصغير لنسمع بعدها أصوات أطفال ونساء ومعهم على ما يبدو رجل كبير السن كان لا يتوقف عن السعال. لم نتعرف عليهم أبداً؛ إذ بعد حوالي الساعتين أخذوا إلى مكان مجهول قبل أن يتنفس الفجر.

كان واضحاً أن جواباً مثل هذا قد ضرب على وتر حساس في نفسه، لم أعرفه، ولكن من الجلي أنه حرّك شيئاً في داخله غير الذي كان يبدو على سحنته. أثار فيّ كثير من التعجب، عندما قال لي اذهب وناد على شخص آخر. بدا لي رجلاً غريب الأطوار، إلى الحد الذي شعرت بالشفقة عليه، ورأيت فيه إنساناً آخر، وسألت نفسي: يا ترى هل تذكر موقفاً مرّ به يوماً ما، وقدم الذريعة عينها، ولم يُرحم حينها؟ أم إن غيري وقف امامه بالعذر نفسه وكان على يقين من براءته، لكنه عاقبه فتحركت اليوم عقدة الذنب عنده؟ أم انه حين نظر إليّ مثل أمامه شخص عزيز عليه غيبته الدنيا عن ناظريه، وكأنه حضر بمواجهته في هذه اللحظة نفسها، لعل استحضر ملاطفاته له، فذكريات من هذا النوع ترسخ رسوخاً غريباً في النفس، ومع أنها لا تعدو أكثر من نقاط صغيرة مبعثرة في خضم تكدس مهول لمنحنيات الحياة وخبراتها، إلا أنها حينما تسطع بضيائها تنير سائر النفس التي ابتلعتها عتمة الشهوات وأطفأت جمالها الظلمات. كانت لحظة متوهجة شعرت فيها بأن كل إنسان يختبئ في داخله جوهر نقي خال من الشوائب يفيض نوراً ومحبة، يزيح به ظلمات الكراهية والبغض، ويمكن به أن

يجعل منه إنساناً فذاً تتعلق به كل هالات المجد والصفاء والنقاء وتروي قلبه الظامئ للخير.

بعد هذه المقابلة الغريبة زج بيّ في القسم الأول، وهو ما كنّا نختصره نحن السجناء بـ"قاف واحد"، وحصراً في الزنزانة رقم ٧، ولا أعرف تأويلاً - لتغير اسمها عندنا من "زنزانة" في المعتقل إلى "غرفة" في السجن مع أنهما واحد في التعاسة وبؤس الحال. الغريب أني لم أصادف أبداً أحداً من السجناء يطلق عليها كلمة "زنزانة"، كما لم أجد بالمقابل أحداً يسمي زنزانة المعتقل "غرفة، والأكثر من هذا أني لم أرَ أحداً يسأل عن سبب هذا التبدل في المصطلح، فالكل كان يستعمله بسلاسة وبداهة كأنها مسلمة لا تحتاج نقاش ولا مراجعة، ولكن الأمر لم يكن بهذه السذاجة. إنه شيء يدعو للتوقف عنده، فما كان يعدّ في السجن أمراً غير ذي شأن لأنه كان مفهوماً، فهو في خارجه أحجية بلا حل وتحتاج إلى بيان وتفسير. أن تكون هناك غير أن تسمع عنه، فمهما أتقن المتحدثون التصوير والتعبير، تبقى الصورة مجرد إبراز لجانب محدد من الواقع، وليست هو ولا ممثلة عنه. ويقع في شراك الخدعة من يتعامل مع الجزء على أنه كل، بينما أنه بالمستطاع فقط الاستدلال من هذا الجزء على سمات

معينة، ربما هي أوضح أو أبرز من سواها، ولكنها ليست كلها ولا حتى أهمها.

## ١٤

***

وقع كلمة الزنزانة وأثرها مربك بما توحي من فزع مصادرة الحرية، ولفظ بهذه الدلالة المريعة يدفع المرء للفرار منه والتخلص من إيحاءاته؛ لذا يلجأ لاستعاضته بآخر؛ ليشعر نفسه أو يوهمها بزوال الخطر، لكن حينما يحضر الوعي فهو أعظم من الانزلاق في حظيرة الأوهام، بل يغوص بصاحبه في عمق؛ ليدرك أن عليه ألا يستسلم للضغط النفسي الذي يمارسه الجلادون. حينذاك لا يجد من بد في بناء تحصينات وتروس لدرء هذا الخطر الدائم، وأولها رفض الاستسلام لفكرة السجن، وما يراد فرضه من تكريسها في النفوس.

السجن ليس تضييقاً على الحركة وحسب، بل هو دئب مستمر ومتواصل لإقناعنا، باننا قطيع مخلوقات خارج حدود البشرية، وأننا مجرد أدوات مسخرة، لا نملك قراراً ولا رأياً، وليس لنا حرية الاختيار في أي شيء، وإننا ندور في حلقة مفرغة، وان الحياة هنا هي التي تصنعنا بإرادتها،

وما نحن إلا أجساد طيعة كطين اصطناعي يركبنا أضعف المخلوقات كيفما يشاء.

حاولوا تحطيم كرامتنا كبشر، وإلغاء إحساسنا بالإنسانية، فكان لابد من إجهاض سعيهم بالتحدي. إنما حداثة العهد بالاعتقال، وقلة الخبرة بمواجهة عدو محترف، ولأن الحدث برمته كان أمراً مفاجئاً قد وقع بلا استعداد كاف عند كثير، كان كفيلاً بجعل مجموعنا، وليس جميعنا يقف مبهوتاً لا يقوى على التفكير بنحو سليم. نتيجة لكل هذا استسلم أغلبنا بلا وعي لتأثير مخططهم النفسي من غير إدراك، إلا أنه ما أن اُستردت الأنفاس من هول صدمة لحظة المواجهة الأولى، وتمالك معظمنا أعصابه، اُستعيدت رباطة الجأش وبدأ الشروع بالمقاومة بكل وسيلة متاحة وبأي سبيل ممكن. كان من أنجع هذه الوسائل رفض مصطلحات السجن، وإذا جرى تداول واستخدام لها فإنما يكون بنحو الاستهزاء والسخرية، وبكثير من التهكم والازدراء والاحتقار. رد فعلٍ أشبه بثورة ثقافية لتطهير المجتمع من غزو مشبوه، يحمل إصراراً وعناداً على مواصلة الحياة، لا حباً بالبقاء إنما تحدياً ومنازلة للعدو في ميدان معركته وإباءً للنكوص والفرار.

كل شيء في حياتنا اليومية هناك كان موضعاً للاستثارة النفسية والاستفزاز، من أكثر الأشياء جسامة إلى أقلها أهمية واعتباراً، حتى مواعيد وجبات الطعام التي هي من أكثر الأمور روتينية، جُعلت أمراً مستفزاً يؤجج السخط ويلهب الغضب وينمي الإحباط. كان النهوض الصباحي إلزامياً، وجُدْوِل بفرض وقت مبكر له في الساعة السادسة، إلا أنهم تعمدوا التلاعب في وقت وجبة الإفطار، فلربما كان علينا أن نترصد وصولها لثلاث ساعات، أو أكثر من ذلك، نتضور جوعاً، ثم نمل ونبرم ليس من الترقب والانتظار وحسب، بل نسأم الزاد نفسه، بعد أن تتبعثر حزمة التوقعات وتنقشع التخيلات بحلول صنف جديد من إثارة الغضب والإحباط، عندما يتمخض هذا الترقب الطويل والانتظار الممل، عن بيضة مسلوقة واحدة لكل شخصين، عليهم أن يخرسوا بها أمعاءهم الخاوية لساعات لا يعلم عددها ولا متى ينتهي أمدها، وربما إلى منتصف الليل.

باتت الشمس حلماً يداعب الخيال، والتوق لرؤيتها صار أمنية شبه مستحيلة. نجم يسطع بضيائه على مجرة تتسع لكواكب وأقمار لا أعلم عددها، إلا هنا انطفأ نوره. حينما كنّا أطفالاً كانت تبهر عيوننا الصغيرة؛ فنتسابق

للظفر بأعقاب القناني الزجاجية، وسعيد الحظ من كان يحظى بعقب ملون ينظر من خلاله لهذا الضوء العملاق المعلق في كبد السماء وهو يسير يومياً من الشرق إلى الغرب، قبل أن يقولوا لنا بعد ذلك في المدرسة إنه كالثريا في سقف صالة الضيوف تقف ثابتة وكل شيء تحتها يدور. أنظر إلى السماء فتعلق عيني بالسقف الأسود، أغمضهما فتحلق أسراب حمام في فضاءات أوهامي تحت شمس مبتلة تنشر ألواناً قزحية، أستعد للتحليق معها؛ فأفرد جناحيّ، وأصفق بهما بقوة، فيوقظني من غفوتي جار لي، وهو يقول: ها علِيّ، هل كنت تحلم؟ أعود من جديد إلى الكهف المظلم، واتململ عابثاً برماد ألمي ومعاناتي. ويمر عليَّ في يقظتي شريط الركلات والعصي، حين بحَّ صوتي في ذاك الدهليز وخفت كل شيء فيّ، حتى صوت الأنين قد تلاشى حين امتزج بدماءٍ تلطخ جسدي العاري.

لم الظلام يخيّم على هذا المكان؟ ولم الشمس تختبئ خلف جدار الليل، ما الذي تغيّر؟ هل تجمد الزمن وتوقفت الساعات كلها، وهل تلاشت ألوان السماء؟ متى يعود اللون الأبيض إلى منازعة الأسود في الوجود كي تتبيّن الأشياء؟ لا قمر ولا نجوم في هذا الليل، بل هو

عتمة متواصلة في استبداد، وشمس خامدة مثل مصباح كهربائي عاطل ملتصق بباطن سقف معتم. الكل يرقد في مطرح عارٍ من لوازم النوم دون أدنى حركة، وتمضي أربع وعشرون ساعة تلو الأخرى والشمس لا تغير موقفها كأنّها رحلت للأبد أو حُذِفَتْ من الوجود.

في أحد الصباحات تم فتح باب القسم، ودخل منه المفوض "فلاح عاگولة" بصحبة الشرطيين رائد وخليل، وصاح بأعلى صوته: استيقظوا! هذا اليوم سوف تخرجون إلى الشمس. فتحت أبواب الزنزانات وخرج السجناء جميعاً إلى ساحة ترابية مهملة غطتها بالتمام نباتات برية من شوك وعاقول وعلقت بهما نفايات تراكمت لأشهر متطاولة إن لم تكن سنوات. كنا نسير والسباب والشتائم تنهمر علينا لكن لم نبال كثيراً بها، إذ أن الاستحمام بأشعة الشمس بعد سنوات من الظلمة لم يكن يضيره شيء منها، ولم ندع شيئاً من تفاهاتهم اليومية المعتادة أن تعكر صفو فرحتنا. أغلقنا الشقوق التي يتسرب منها اليأس، وفتحنا نوافذ قلوبنا لنستقبل الشمس بأمل وتفاؤل، نتسابق بالخروج كي نرى ما غيب علينا، ولنتأكد مرة أخرى أننا لم نزل ننتمي لهذا العالم. الحق يقال إن بعضاً منّا أصابه اليأس من رؤية الشمس من جديد، فكان خبر

بزوغها علينا في ذلك اليوم أشبه بالمعجزة. لكن أحلامنا ذهبت أدراج رياح زعيق تعالى من المفوض "فلاح عاگولة" وهو يقول: أريدكم أن تنظفوا الساحة من جميع الأوساخ. ساد صمت شامل وتجمدت أنظارنا كل باتجاه الآخر، لم نفهم ما يقول هل يمزح الرجل أم...؟

- هيا باشروا التنظيف!

وإذا بهراوة من أسلاك حديدية مغلفة ببلاستك سميك تطير في الفضاء وتسقط على رأس أحدنا، وتبعتها مقذوفات أخرى من الشرطيين تساقطت عشوائياً علينا. نهرب من عصيهم فنعلق بأشواك حادة أدمت جلودنا، صارت جل آمالنا أن ننجو من سخريتهم البشعة ومقتنا شوقنا إلى الشمس وتملكتنا رغبة عارمة للاحتماء بالعتمة والزنزانة. عدنا لما كنّا فيه من ضيق وظلام نخرج الأشواك التي ملأت أجسادنا ونضمد جراحنا من وقع هراواتهم ونتجرع غصة السخرية وذل الاستهزاء.

# ١٥

***

لم يكن هناك من شيء نفعله سوى الانتظار، انتظار لا ينضب، إنما التهلكة ليست فيه، ولا في أن يكون المرء مغلولاً مكبلاً، بل حينما يسكن الخمول والعجز في جنانه؛ فيبدأ البحث عن محرر ينتشله من هوانه وعن معتق يطلقه، وعن مُخَلّص ينقذه من تعاسته بمعجزة خارقة، فيمتنع عن صنع أي شيء سوى ترقب عبثي خاو من أي معنى يفر به من محنته، لينقلب الوجود عنده إلى عبث وسخافة يجرفه إلى حيرة دائمة. ينتظر حضور ما لا يعلم الفائدة من حضوره أصلاً، ولكنه يبقى يعوّل على حضوره بصبر وجَلد ظاناً أن خلاصه من التيه والحيرة سوف يأتي معه، فيتشبث بأمل خادع مبتكراً خبراً مزيفاً يدعو للضحك أو علامة للظهور لا يراها إلا هو، أو يشغل نفسه بالأحلام، وحينما يكتشف بأنه لن يأتي هذا اليوم تخبو جذوة انفعالاته، ويجد أن انتظاره كل تلك الفترة الماضية كان عبثاً بدون جدوى، فتهبط عزيمته،

ويشعر بأنّ الحياة تحاصره بطريقة يصبح فيها الموت مأرب يصعب الوصول إليه، ولا يجدي معه النسيان. هذا الانتظار اليائس يدفعه للتشكيك في وجوده، ويصبح غير واثق مما حوله فيخترع عالماً خاصاً من الفنتازيا، ينحدر به إما إلى العته، أو الجنون فيصبح مطرحاً للرثاء، أو للتخلف عن ركب الحياة، ويمسي مقاماً مزمناً للسخرية.

كان الموقف يقتضي الكثير من الواقعية وجرعة استثنائية من العناد ومستوىً عالياً من الأنفة والشمم وشراسة فوق العادة في رفض واقع يراد فرضه علينا مثل سرير "بروكرست"، الذي لا مثيل له بميزته العجيبة بملائمة طوله دائماً لمقاس النائم عليه أيّاً كان إذا ما اضطجع عليه؛ فإن كان قصيرًا يمط إلى الحافة، وإن كان طويلاً يبتر ليفصل ما تجاوز المضجع؛ حتى يتوافق مع طوله. كان علينا أن نقاوم الاضطجاع على هذا السرير، فهو خير لنا من انتظار ثيسيوس الذي سوف يضجع بروكرست على السرير ذاته ويقطع رقبته لينسجم مع طول سريره. المقاومة هي الحل، وليس في انتظار مخلص قد لا يأتي وإن أتى نكون قد قضي علينا كلنا، وأصبحنا بقايا بشر بعد أن كنّا نحسب عليهم. "القضبان لا تصنع سجناً"، إلا إذا صدقنا أنه أنشئ لحبس الحركة

فقط، بينما حقيقته وغايته تكميم الأفواه وسجن العقول التي تمارس التفكر، وهل يتوقف العقل عن الإنتاج والخلق إن ضاق المكان أو اتسع؟ لو كان كذلك لما عاد الكليم موسى من مدين المنفى يرفع بينات الرب بوجه من طغى، ولما برح النبي محمد غار حراء يحمل بيده قرآناً لا يموت مع تبدل الأحقاب وتغير الأمكنة.

كانوا يريدون أن يجعلوا الموت متمادياً بطيئاً يستنفد كل طاقتنا حتى ننطفئ مثل شموع منسية في تيه الإهمال والوحدة، وكان علينا أن نقاوم كل هذه بأشياء قليلة تطالها أيدينا. كان علينا أن ننسى وجود أشياء كثيرة أخرى ألفناها من قبل في ذلك العالم ونعيش مع أشياء هذا العالم مهما كانت مشوهة، بل حتى كان علينا أن نغير من استعمال حواسنا وان لا نتقزز من الروائح التي تدعى كريهة في ذلك الكون الآخر. فلم تعد العفونة ولا رائحة البراز والبول مشكلة عظمى، فكم من مكان كنّا نجاورها فيه بلا تأفف ولا استنكاف.

غيرنا من مهام حواسنا وأسديناها وظيفة جديدة باعتياد الروائح بدلاً من التقزز منها، كما كان على أجسادنا ليس على تحمل الوجع والصبر عليه، بل بأن تجعل منه درعاً تتقي به المزيد منه. ليس من السهل أن يشرح المرء كيف

يحول بوصلة الجسد من اتقاء الألم إلى جعله مضافة له. حتى سنوات العمر كان علينا أن نوقف تقدمها، ونجعل الزمن عدماً لا أثر له في أرواحنا وإن حفر أخاديد عميقة على أجسادنا. من اعتقل صغيراً بقي على حاله ومن اعتقل كبيراً بقي على وضعه. لم تستطع السنون المتعاقبة أن تطمر الفجوة ما بين الصبا والشباب والكهولة، فحتى بعد سنوات طويلة من الحبس ظل هناك ما يسمى باصطلاح السجن "الأحداث" في إشارة لمن دخل السجن وهو في سن المراهقة مع أنهم قد بلغوا عتبة وداع الشباب. من كان في عمرهم في غير السجن إذا لم يكن متأهلا فقد كان يحسب متأخراً عن رفاقه.

# ١٦

***

في الثمانينيات كانت القناة الحكومية للتلفاز العراقي تعـرض يوميـاً وبشـكل دؤوب جـولات صـدام حسـين لقواطـع عسـكرية، أو حفـلات اسـتقباله لقـادة حربـه وهـو يقلـدهم أوسـمة على بطـولات مفترضـة. فـي الواقـع كـان الجيش العراقي يعيش على وقع هزائم متتالية وانسحابات كبيـرة مـن أراضٍ كـان يسيطر عليهـا فـي العمـق الإيرانـي. وتكـرر استسـلام قطعـات عسـكرية بأسـرها للقـوات الإيرانية، لذا كان عدم الفرار من ساحة المعركـة، حتى لـو تعرض الجيش للإبادة يعدّ انتصاراً وبطولـة يستحق عليها القادة وساماً عسكرياً.

يبـدأ العـرض بالعـادة مـع نشـرات الأخبـار مـن السـاعة الثامنة مساءً، ويمكن له أن يستمر إلى منتصف الليل. كـان علينا أن نبقى جالسين من غير حراك، لا ننبس ببنت شفة مطلقاً، ويُمنع علينا تناول العشاء إلى أن ينتهي البرنامج أو يصدر أذن بـذلك. العيـون تحملـق بـذهول فـي الطعـام ولا

تجرؤ حتى على تذوقه، والجوع قد ألبسنا وشاحاً من الشحوب ودثاراً من الضعف والهزال ورداءً من السقم والإنهاك. ضوابط حديدية صارمة لا تقبل الخرق، مهما كان المبرر أو الذريعة، فلا يسوغ لأي كان قضم ولو كسرة رغيف لإسكات جوعه، وتمنع الانفعالات وتعابير الوجه خصوصاً إذا ارتسمت ابتسامة غامضة، وكلها كانت تفترض غامضة، لأنه ليس مهماً أن يعرف سببها. يحظر الكلام همساً، أما الجهر به، فهو بمثابة إعلان عصيان، بل إنه ثورة وتمرد. وإذا استسلم أحدهم لنعاس وأغمض عينيه فكان يدخل نفسه في تحقيق مر أسهله أن يعيد ما أدلى به الرئيس في البرنامج.

أي شخص كان سوء حظه يورطه في هذه المخالفات أو غيرها، بقصد أو بغيره، تُربط يداه وقدماه على قضبان الزنزانة، ويبقى معلقاً عليها مربوطاً بها فترة لا يُعلم متى تنتهي، لأنه لم يكن هناك من قواعد قانونية للمخالفات وعقوباتها ولا حتى ضوابط متعارف عليها لانزال القصاص أو تحديد نوعه، فكل شيء مبهم ويحكمه عنصر العبث. مزاج عناصر الأمن المتقلب والمتهور هو القانون؛ لذا كان من العادي جداً إن يستمر أي شخص أوقعه نكده في شباك الوشاة أن يبقى مصلوباً لعدة أيام.

وعليه في كل هذه المدة ان يأكل وأن يقضي حاجته الطبيعية وهو على هذه الحال، وهو أمر لا يمكن ان يلخص بسطور، بل ينبغي أن يترك للخيال والتصورات وحسب.

حربٌ نفسية ظاهرها الفوضى والعشوائية، إنما أبسط متطلع فيها كان يعرف أنها منسقة بدقة، وصممت لفرض سياق خاص يجعل السجين يشعر بتوتر متواصل وقلق أبدي، يحرمه من الاسترخاء ويعدمه الاستقرار ولو لبرهة قصيرة، في أي مكان وجد، حتى لو كان في زنزانة معتمة ضيقة زرعوا فيها عيوناً تنقل لهم بخبث وافتراء ما يجري داخلها. وماذا أصلاً يمكن أن يجري في زنزانة مقفلة لا تفتح مطلقاً؟ هؤلاء الخونة السعاة كانوا يتنافسون على إبراز مستترهم من النذالة والخسة باختلاق الوشايات والنمائم، وابتكار أحط ما يملكون من أفعال الدناءة، من غير أن يشعر أي منهم بضيق أو حرج ولا يمسهم إحساس بالخجل أو انزعاج من تبعات أفعالهم. كل ذلك لإرضاء أفراد الأمن، الذين كانوا يتشبثون بأدنى إفك أو فرية لإيقاع عذابٍ مرير قاس بالسجناء، ولكن هذا لم يفت في عضدنا ولا أخمد أنفاس التحدي، فقد كنّا نقاوم

ونـأبى الخضـوع، ونتحـدى هـذا التضـييق بكـل صـورة ممكنة، ونبتكر بديلاً لكل ممنوع علينا.

منعـت عنّـا كـل أداة للكتابـة فـلا قلـم ولا قرطـاس، فاسـتعملنا لغـة المـورس للتواصـل بيننـا عـن بعـد وعبـر الجدران، بل اخترعنا نمطاً مبتكراً بالكتابة في الهواء. كـان أحـدنا يكتـب حـروف كلماتـه فـي الهـواء والآخـر عليـه أن يقرأهـا بدقـة ويجمعهـا لـيفهم المـراد. لـم يكـن التواصـل للدردشة أو لتناقـل الأخبار الشـحيحة وحسـب، بـل لتبادل المواضـيع الثقافيـة أيضـاً، وحتـى لحفـظ السـور القرآنيـة والأحاديـث الدينيـة. رغـم كـل مشـقتها فإنهـا كانـت عمليـة مشـحونة بمخـاطر جمـة، وتجـري بسـرية مفرطـة وتكـتم مشدد. ليس لأن التواصل بيننا كـان ممنوعـاً فقـط، ولا لأن النقاشـات الثقافيـة أمـر محظـور بـالمطلق، بـل لأن القـرآن نفسه كان يجرم تداوله هو الآخر.

كلام كهذا بالتأكيد لن يعقل تصديقه، ولـن يتخيـل أمـرؤ حصـوله فـي بلـد أغلبيـة سـكانه مـن المسـلمين. أعلـم أن سؤالاً عفوياً سوف ينطلق رداً على هذه المعلومـة الغريبـة، وسـوف يـتهكم السـائل قـائلاً: وهـل يشـكل حفـظ سـورة قرآنية، بل وحتى حفظ القرآن كله، خطراً على السـلطة أو على الجهات الأمنية؟ ألا يتلى القرآن في التلفـاز والإذاعـة

بشكل يومي بلا انقطاع منذ تأسيسهما؟ ومتى كان القرآن أمراً محظوراً، حتى يتم تحدي السلطة بحفظ أجزاء منه؟ جولة واحدة في المقابر تكفي للبرهان على أن القرآن هو الصوت الأكثر شيوعاً في هذا البلد. نعم، حيث يرقد الأموات لا يخشى أن يرتل القرآن ليلاً ونهاراً، فلا أحد يسمع ويفقه ما يقال، أما بين الأحياء فالأمر مختلف. لم يكن القمع محصوراً بإسكات أصوات الاعتراض، ولا بمنع النقد العلني والسري وحسب، بل وصل الأمر إلى تنشيف كل مورد حتى الأساسي والضروري لمن يتمرد، بل من يفكر بعصيان السلطان، أو يبدي أدنى علامة من التذمر أو عدم الرضا، وحتى أقل من ذلك.

يتخيل المرء أحياناً لفرط حسن ظنه أو لسذاجته بأن هناك أموراً أساسية لا يستغنى عنها، أو أنها لفرط ضرورتها بين الناس فلا يوجد إمكانية بالمطلق أن تكون من الممنوعات أو أن يغدو من المحظور تداولها، إنما في ذلك العالم السفلي المحجوب لم تكن تجري الأمور بهذه الطريقة المثالية الحالمة أبداً. في ذلك المكان القصي تهاوت مساحيق التجميل، وفنيت مظاهر الزينة الخادعة كلها، وحضرت الحقائق عارية مجردة، وبان المعدن الأصلي وماهية الأشياء. نسخة القرآن كانت شيئاً

ممنوعاً يعاقب حائزها بقسوة، ولكن أولاً أنى لأحد أن يحصل عليها؟ فلا أحد يدخل أو يخرج من الزنزانات، حتى لو كان ذاهباً لتحقيق جديد إلا وكان يفتش تفتيشاً دقيقاً.

في يوم دخل إلى "ق٢" شرطي الأمن "علِيّ"، وهو شاب عشريني بسمرة داكنة، قصير، نحيل، ذو وجه عابس متجهم بتعابير قاسية، له عينان حادتان شريرتان، وأنف أفطس قليلاً. دخل قاطباً مكفهراً يقتاد سجيناً اسمه "سيد سعيد" كان قد أخذ قبل مدة وجيزة إلى أحد مراكز التحقيق لورود معلومات جديدة متعلقة به. وما أن أصبح في باحة السجن حتى صاح به: ما هذا الذي تحمله، عندما أخرجناك لم يكن بيدك شيء؟ استحوذ الشرطي على الكيس، ونثر محتوياته في الهواء؛ فتطايرت قطعتان تضارع الملابس الداخلية. أقول ذلك، لأنهما كانتا رثتين جداً، شحب لونهما الأبيض إلى لون جمع بين صفرة قبيحة وسمرة دميمة، فما عادتا تنفعان سوى أن تكونا خرق مسح بالية، إلا أنهما صودرتا رغم ذلك.

استفز وجودهما الشرطي بصورة غريبة، فهجم على سعيد بعصاه. صفعه أولًا، ثم بدأ يضربه بها، فلم يبال هذا بضرباته، بل لم يتحرك من مكانه كأنما تسمر فيه؛ فغضب

الشرطي غضباً عارماً، فمضى يعزز من ضرباته، وسعيد يتلقاها بهدوء كما لو أنه كان يزداد مع زيادتها قوة واحتمالًا. أمتلأ فضاء الباحة بصخب صرخات جنونية يطلقها الجلاد وأعوانه امتزجت مع صلصلة الهراوات وهي تنزل على جسد الشاب، ومع كل تلك الفوضى لم يتخل عن سؤاله بإلحاح غريب من أين لك هذا؟ كأنما وجد عنده سلاحاً خطيراً أو أنه ظفر بوثيقة سرية مهمة كان يخبأها.

لم ينبس الشاب ببنت شفة، ولم يعر أسئلته المجنونة أي اهتمام، كأنه لم يكن يسمعها، أدخل إلى الزنزانة مشفوعاً بوعيد وتهديد بمعاودة التحقيق معه ليلاً. بالفعل مع حلول وقت وجبة العشاء، اندفعت هذه المرة زمرة جديدة يقودها النقيب غالب الدوري يرافقه ثلاثة من عناصره الأمنية، علِيّ وخليل ورائد، وشرع التحقيق معه، لمعرفة مصدر هاتين القطعتين. انصبت الهراوات على جسده، ولم تتوقف طيلة الوقت سياط ألسنتهم عن السب الفاحش والشتم المقذع، ولا عن التهديد والوعيد بمضاعفة العذاب، إلى أن أصابهم التعب والإرهاق من التعذيب. تم طرحه أرضاً ليأخذ حصته من الفلقة، ولكنه لم يعطهم سوى الصمت والتجاهل، لم يكن يصرخ ولا

يصدر أي تأوه، ولـم تبـدر منه أي إشارة لطلب العفو أو الرحمة، لا بكلمة ولا بغيرها. أقصى ما صدر منه صرخة (الله أكبـر). بعـد أن أصـابهم اليـأس منـه، أجبـروه علـى الهرولـة، لأن السير بعد الفلقة يكون صعباً مؤلماً دامياً، وكلهـم رجاء أن يخر فزعاً من جريان الدماء من قدميه، فيضـطر للانصـياع والاستسـلام وإعطـاء اعتـراف ذليـل، ولكنه كان تماماً بالضد من أحلامهـم. خابت آمالهم أمام ابتسامته التي نشرها في فضاء السجن وهو يهرول مبتسماً، يبادل السجناء في الزنزانات التحية بعينيه وقد رسم فيها الضحكة والبهجة، كأنه كان يمد لسانه لاذعاً ساخراً من محاولاتهم لثنيه عن صموده الذي استمر مما اضطرهم أخيراً إلى الإقرار بفشلهم فأعيد إلى زنزانته يزهو بجراحه وهم يجرون أذيال الخيبة والخسران.

هذه الحكاية لو سمع بها أحد خارج تلك الزنزانات لأصيب بالذهول، فهل حقاً إن حيازة قطعتين من ملابس داخلية متهرئة تستحق كل هذا التعذيب؟ أمر مضحك، بل وحتى سخيف الحديث عن قصة اعتراف يجب أن يقدمه نزيل لإدارة السجن عن خرقتين رثتين باليتين، ولكن صار جلياً معنى استحالة دخول أي شيء للسجن، وكيف كان كل شيء محظوراً حتى ما كان ضرورياً، أو أنه يحسب

من الأمور المتعارف عليها بين سائر الناس، ولا بأس بحيازته. لقد كان الأمر كذلك بالفعل، وعلى المرء ألا يستخف بالأشياء الصغيرة، فقد تكون قيمتها الحقيقية ليس بما يظهر منها، لكن بما تحمل من رمزية ودلالة في مكانها وزمانها.

# ١٧

***

القـرآن المحظـور كـان حفظـه تحـدياً عظيمـاً وخطـراً جسيماً، فلا موضع يحفظ فيه سوى صدور أكلها السل الرئوي، وما من وسيلة لتداوله بسرية وتكتم، سوى شفرة المـورس، أو وسـيلة مبتكـرة فـي السـجن عبـر الكتابـة فـي الهـواء، وهـذه الوسـيلة لا أحسـن شـرح تأريخهـا ولا كيـف ابتكـرت، أو كيـف يـتم العمـل بهـا. إنمـا باختصـار شـديد أقول: أصبح الفضاء لنا قرطاساً لا متناهياً بعد أن حجبوا عنّا الـورق، وغـدونا نرسـم الحـروف فـي الهـواء فتترجمهـا بواصـرنا بعـد أن تعيـد جمعهـا ثـم نخبأهـا مـن جديـد فـي صدورنا.

في نهار شتوي جمع النقيب غالب الدوري كـل سـجناء القسم الثاني (ق٢) في ساحة صغيرة مشبعة برائحة كريهة، وجو خانق لا يطاق. يكفـي المرء أن يمكـث هناك لـدقائق قليلة كي يصاب بالغثيان وتتملكه رغبة ملحة في التقيؤ، مع أنه لم يصب أي أحد منّا شيئاً من هذه الأعراض، أو

أني لا أذكر ذلك، ولو حصل ذلك فقد كان لأمر آخر وليس لهذا السبب. تملكتني نوبة من ارتعاش شديد لسبب آخر، وهو العجز أمام السلطة، وأصابني دوار أفضى بي إلى غثيان حقيقي نزع بي إلى إحساس ساحق بالذنب، لمجرد الوجود في هذا الكون في تلك اللحظة. ملأني شعور بالإثم لجريمة لم أقترفها، بل أنها لم ولن ترتكب. شعرت بحلقومي ينقبض ولساني يجف، وأنفاسي تتقطع. هاجمني إحساس بأني بلا قيمة، كما لو أني دقيقة صغيرة من غبار تتحرك حركة عشوائية في ضوء الشمس. لن أغالي لو وصفت ما كان يدور في رأسي حينها لو قلت، أني بدوت أتفه من هذا، حين بدأ النقيب حديثه بكثير من الانشراح راسماً آيات من الابتهاج على وجهه، وقد تخلى عن تجهمه المعتاد في مواجهتنا، وهو يصدر أمراً بتوزيع ملابس سجن مقرفة في لونها ومقززة في شكلها لا تكفي لخمسين شخصاً، مع أن عددنا كان يربو على الألف.

كان يتكلم كما لو أننا حشرات صغيرة أمامه حبسها في قارورة، ويلقي إليها فتات من فضلات طعامه. ولا تلوح على سيماء وجهه ملامح أي شعور بالخجل من البؤس الذي يذيقنا إياه. كان متخماً بالتكبر وانتفاخ العظمة إلى

حد أصبح وجودنا بالنسبة له بلا قيمة، ولا يوجد ما يثير حنقه لو مات أحدنا، بل كان سيواصل حياته بلا أدنى تغير يطرأ عليها، حتى لو قضينا كلنا.

نهض أحمد الحلي مستثمراً فرصة انشراحه وطلب منه الأذن بالكلام.

- ما تريد؟ قال له النقيب غالب

- نريد مصحفاً!

- ماذا؟

- نريد مصحفاً لنقرأ به!

- ماذا يعني بمصحف؟ التفت النقيب إلى من معه من أعوانه متسائلاً وكأنه يسمع الكلمة لأول مرة في حياته.

- يعني القرآن. أجابه أحدهم

- القرآن ثقافة أجنبية، ولا نسمح بتداوله أبداً. نحن سوف نثقفكم بطريقتنا، وسوف نوفر لكم جرائد ومجلات بدلاً من هذا الذي تتحدث عنه وتطلبه، القرآن لا، هذا شيء غير مسموح. هكذا رد النقيب بحزم ووضوح لا لبس فيه.

في ختام هذه الظهيرة الباردة البائسة خرجت باستنتاج مر، وهو أنه ليس أمامي إلا أن أقبل الأشياء كما هي، وألا ألفت الأنظار إلي، وأن أبقي على فمي مغلقًا، مهما كان

ذلك ضد طبيعة سير الأشياء والمنطق والمعقول. صار لزاماً عليَّ أن أفهم أن وراء هذا النقيب الوحش ليس رجلاً مفرداً، بل نظاماً اغتصب عرش الإله، وفرض عدالة خاصة به، وأن الإنسان في هذه البقعة من الأرض، متهم محكوم عليه بالموت مسبقاً دون جريرة، وبذنب لا يعلم ما هو، سواء كان قد اقترفه أو لا.

عندما أقول إننا كنّا في سجن، فإن في ذلك تسامح كبير، ينبغي لي الاعتذار عن كثير من الالفاظ التي استخدمتها لأنها لا تعبر عن حقيقة المعنى الذي أريده. السجن موضع لحبس حركة مجرمين وعزلهم عن المجتمع إما مؤقتاً أو دائماً حتى يشعروا بالندم على ما ارتكبوه من خطأ فيعودوا للمجتمع ولا يشكلون خطراً عليه من جديد. لكن هذا لا ينطبق على المكان الذي كنّا فيه، بل كان مقدراً لنا أن نموت، ولكن ليس على الفور، بل بعد أن يتم الانتقام منّا في كل ثانية تمر علينا. تعذيب جسدي لا يتوقف، حتى بات صوت المفاتيح وقرع الأقفال كأنه صلصلة ثعبان قاتل جاء ليبتلعنا.

فعلاً كان الأمر كذلك، فكم من سجين مات تحت التعذيب لأسباب تافهة لا يصدق أي أمريء أن رجلاً قد قتل لأجلها. عقوبة السجن المؤبد أصلاً كانت توزع على

السجناء بدون فعل حقيقي قام به صاحبها، بل لشبهات وأحياناً حتى بسبب خطأ. لم يكن السجن يخلو من شخص أُعْتُقِل بسبب تشابه أسماء ومع ذلك حكم عليه بالسجن مدى الحياة رغم اكتشاف الخطأ. آخر أُعْتُقِل بسبب وشاية من منافس أو خلاف عائلي، وتعرفت على رجل وشت به زوجته لأنه كانت تريد الانفصال منه. الغريب أنه أُتهم بتهمة الانتماء لحزب ديني مع أن الرجل كان مخموراً ساعة اعتقاله.

فظاعة ما يجري من نقص الغذاء والماء وحتى الهواء وتغييب الشمس عنّا كان يجعل من الموت خلاصاً. جوع حد المخمصة، فما كان يصلنا لا يمكن إطلاق عليه مسمى غذاء. كنّا نتندر على قدر الغذاء بأنه ماء يسبح فيه بصل. كنّا نخرج لب "الصمون" الهش ونضعه مكشوفاً كي يجف ثم نأكله لاحقاً على أنه حلوى. كنا نضطر في أحيان كثيرة لحفظ حساء الصباح والشاي إلى المساء، إما لأن بعضنا كان يصوم في غير شهر رمضان بغية تعويض ما فاته من صوم في السنوات المنصرمة أو رغبة في العبادة. كنّا نعزل الحساء على فتحة صغيرة في الجدار المطل على ساحة خلفية مخصصة للنفايات. ومع أننا كنا نغطي صحن الحساء بصحن آخر للحفاظ عليه حتى

وقت السحر مع الشاي الذي كنّا نضعه في علبة يملؤها الصدأ؛ ليشرب الشاي مثلجاً، إلا إن هذا الاحتراز لم يمنع الهوام والحشرات أن تهلك في الحساء أو الشاي. ورغم ذلك لم نكن نجد مناصاً لتجنب تناوله، لأننا لا نملك بديلاً عنه، وان لم نفعل سوف نطوى جوعاً.

أما نقص الماء فلم يكن العطش هو المعاناة الوحيدة، اذ كانت حصة الفرد تعادل لتراً واحداً لجميع الاستعمالات من شرب وغسل واستحمام، بل كنّا نعاني من نقص ما ننظف به أجسادنا من الحشرات حتى أصابتنا أمراض جلدية كالجرب وغيرها، لم نجد سبيلاً للتخلص منها إلا بطرق بدائية. كان هناك سجين قد أنهى دراسته للتو في معهد تمريض يجمع المصابين بالجرب في زاوية ويقضي النهار كله في كشط جلودهم بصفيحة معدنية تم تحويرها لتكون مقصاً.

لم يكن الجوع والعطش والمرض وحده، ولا حتى التعذيب الجسدي اليومي هو القلق والخوف الذي نعيشه، بل كان القتل هاجساً حقيقياً. سجناء قضوا محكوميتهم كانوا يساقون للمشانق، وآخرون يتم استدعاؤهم ليساقوا لموت جماعي في جبهات القتال. كان تصلنا أخبار قتلهم عن طرق المعتقلين الجدد،

وبعضهم قد سلمت جثثهم لذويهم على أنهم قتلوا في جبهات القتال، بعد أن تطوعوا للانخراط في الحرب وهم في السجن تكفيراً عن جريمتهم. باختصار شديد وبكلمة واحدة لم نكن في سجن، بل كنّا في قبر واسع بانتظار أن يغلق علينا أبوابه في أي لحظة.

## ١٨

***

ما كان يجري بين حيطان الزنزانات ولسنين طوال حركة يراد منها إدخال السجين في دهليز مظلم من قلق متلاحق وإشعاره بأنه عدم لا أثر له، وأن ليس هناك منطق فيما يجري في هذا العالم؛ لذا لا قيمة للعقل، وأن أمره بيد قوة قاهرة تتحكم به، وتقرر مصيره؛ وعليه أن يخضع لها ذليلاً وينقاد مستسلماً خانعاً. في مرات كثيرة لم يكن هناك أي معنى لما يجري بالمرة، وأجد نفسي عاجزاً إلى هذا اليوم عن تقديم تعليل وتفسير له. أحداث جرت باهتمام كبير من المسؤولين الأمنيين، ومن طالع الموقف حينئذٍ، لم يكن أمامه إلا أن يقطع بأنه سوف يشهد حدثاً نادراً وأمراً بالغ الأهمية، ولكنه سوف يصاب بخيبة أمل تحبط كل الإثارة المتوقعة والتشويق المنتظر.

في ظهيرة يوم صيفي لاهب استبد بيّ الإرهاق والتعب فأخذت إغفاءة بسيطة، ولم أنتبه إلا على صوت جلبة وفوضى عارمة. فتحت عينيّ لأرى جميع رفاق الزنزانة

يجلسون على نحو الاستنفار، وكلٌ يحمل جرابه، وقد عبأ به ما يملك من خرق وأسمال وأشياء أخرى تعينه في صراع البقاء. كان أوار الحرب قد اشتد يومئذ، واستعر لهيبها على جبهة شرق البصرة. كانت الأنباء تتحدث عن هزائم عسكرية، فأدركنا أن الانتقام آت لا محالة في هذا اليوم، ونحن نرى النقيب ومجموعة كبيرة من أعوانه تقف بالسلاح والهراوات خارج الزنزانة تأمرنا بالاستعداد للرحيل. لم يبق أحد منّا لم يساوره الشك بأن الردى صار قريباً جداً منّا، إلا أن كل ما حصل هو أنه تم نقلنا فقط من زنزانة رقم ٧ إلى رقم ١٦ من غير معرفة السبب. بعد يومين فقط جاءت المجموعة ذاتها بهذه القوة الكبيرة وبالفوضى العارمة نفسها والجلبة الكبرى عينها لتعيدنا إلى الزنزانة ٧. في أثناء هذه التنقلات بُرِحَ بعض السجناء ضرباً وشتماً لأنهم تلكأوا في الحركة، مع إن كل هذا لم يكن يعدو عن تبادل بين زنزانات لا يبعد أحداها عن الأخرى أكثر من عشرة أمتار.

من بين كثير من الجلادين الذين صادفتهم، كان النقيب غالب الدوري والرائد عامر يشكلان أنموذجاً متكاملاً للقسوة والسادية، إلا أن أفعالهم وإن استثارت فيّ الفزع والخوف كانت تشغل ذهني بسؤال يعصف فيه أشد فعلاً

وتأثيراً من كل آثار التعذيب الجسدي والنفسي، لا أقوى على نزعه ولا الإجابة عنه إجابة شافية تطمئن لها محفزات تفكيري. كيف يمكن لإنسان أن يعيش حياته اليومية مع أسرته وهو يمارس هذا العنف، وهل يمكن أن يكون حاملاً لمشاعر إنسانية كالآخرين؟ ترُى أيستطيع عند العودة يومياً لبيته بعد انتهاء عمله ويداه ملطخة بالدماء أن يجلس على طاولة الطعام، ويأكل متلذذاً من غير أن يرى في مخيلته صور الأجساد البائسة والمعذبة؟ هل يتذكّر أبناء من هم تحت قهر سلطته حين يلاعب أطفاله قبيل نومهم؟ أفترض أن عذاب الضمير لا يرحم ويوخز في اليقظة ويتحول إلى جواثيم في المنام، ولكن هؤلاء حينما يأتون إلى عملهم لا يبدو أنهم عانوا من أرق ولا سهاد، بل علامات النشاط والحيوية تطفح على وجوههم. لو كانوا فعلاً يشعرون بهذا العذاب لاستحالت حياتهم إلى بؤس، ولما وجدوا وسيلة للهرب منه وللفرار من ذكراه التي تطرق رؤوسهم سوى الانتحار، أو أن يعيشوا في سجنه المؤبد طيلة حياتهم، ولما نعموا براحة أبداً، لكن هذا لم يحدث أبداً.

هل أنتظر من جلاد أن يتصرف كما أفكر، أم إن منطق الأشياء يلزمه أن يتصرف على وفق عقله لا عقلي؟ هل أن

منطق العقل ليس كمنطق الحياة، وأن كل ما أحدث به نفسي إنما هو سراب مثالي لا نصيب له في الواقع العملي؟ فلربما هو مجبر على ذلك، أليس كثيرا غً ما يقال "عبدٌ مأمور" ولقمة العيش تتطلب؟ إنما ما هو المقابل الذي سيناله بعد إنجازه لجريمته، هل يستحق مال الدنيا كلها إغراء شخص عاقل سويٍ مستقيم لأن يزاول الجريمة كمهنة يكتسب منه قوته اليومي؟ وحتى لو وجدت ردوداً لكل هذه الأسئلة، يبقى سؤال آخر يؤرقني كيف أصبح هكذا؟ وهل يمكن لأي أحد من البشر أن يتحول إلى مصاص دماء أم إنهم من طينة خاصة؟

لم يكن حجم التعذيب الذي رأيته، والذي تعرضت له، بذلك المستوى البشع من القسوة، من أجل التعذيب بحد ذاته، بل كان سبيلاً مفضياً إلى موت حتمي، سريع كما حصل حيناً لبعض من رأيتهم بعيني، ربما سوف أجد متسعاً لذكر نهاياتهم المأساوية، أو بطريقة مؤلمة بطيئة للغاية في معظم الأحيان الأخرى. لم يكن أبداً وسيلة إجرائية من أجل سحب أقوال واعترافات، فلو كان كذلك لانتهى عند مرحلة التحقيق، ولما استمرت ممارسته طوال فترة السجن بلا ذنب جديد يقترف أو يتهم به أحد. خبرتي في المعتقلات التي تراكمت في عشر سنوات

أكدت لي أن ممارسة التعذيب لم تكن أبداً فعلاً ارتجالياً، بل كانت عملاً منظماً يجري على وفق تدريب مسبق، إنما هذا لا يمنع من ارتجال بحدود مسموح بها في بعض المناسبات من سجان لا يرحم، ويرى المعتقلين مجرد أرقام وأشياء يجب تعذيبها وتأديبها.

كنت أراهم أحياناً وهم يتقابلون بعد غيبة كيف يحضن بعضهم الآخر، ويتبادلون الابتسامات والضحكات بمودة؛ فيزداد عجبي كيف يمكن أن يتنقل الإنسان بين تلك الأدوار، وكيف يصبح هذا الإنسان بعد قليل وحشاً معدوم الأخلاق والضمير، لا يتردد في سحق ضحاياه وتدميرهم كلياً؟ هل يمكن أن تكون هذه القسوة في أصلها حالة اجتماعية تغذيها ثقافة المجتمع العراقي الميال للعنف أكثر من كونها سمة شخصية؛ ولذا يتصرف بعض الأشخاص بقسوة ووحشية إذا ما وضعوا في محيط ينزع سلطة الأخلاق، بل ويضفي شرعية على التجرد من المشاعر الإنسانية؟ نعم من المرجح ذلك، وإلا فبماذا يمكن تبرير انقلاب بعض السجناء إلى جلادين ممن كنّا نسميهم بالمنافقين. ضآلة عددهم لم تبرر انقلابهم المخيف والعجيب، فهم وإن شكلوا أقل من ٢٪ من عدد السجناء في أقصى الحالات، فرغم ذلك لا يصح أن

يطلق عليهم استثناءً من القاعدة، ففي أي مجتمع ما كانت نسبة المجرمين لتعدو ذلك. ومع قلة عددهم فقد كان وجودهم سبباً واقعياً لمزيد من الرعب والخوف في السجن كله.

لا أنا ولا أحد غيري لمس منهم، شعوراً حقيقياً بالندم حتى بعد أن جردوا من فائض القوة الوهمي، الذي كان يتيح لهم تعذيب الآخرين. توجيه التهمة لهم بأنهم من اتجاه سياسي معين كانت تلاحقهم، وكأنها نقيصة، إلا إن هذا لم يقنعني البتة. فهل وجود هوة وفجوة مع الآخر المختلف فكرياً وسياسياً وحتى عرقياً يغطى عبر انتهاك إنسانيته؟ ولو كان هذا هو الدافع حقاً، فهل سوف نفعل بهم ما فعلوه بنا لو أتيحت لنا الفرصة وتملكنا أمرهم؟ مع ذلك فلم يكونوا منحدرين من بيئة واحدة كي نلقي اللوم عليها، حتى إن بعضهم لم يكن له شغل لا بالسياسة ولا بأي اتجاه فكري، لا قبل الاعتقال ولا بعده، بل إن انحدارهم الجغرافي، الطبقي والمهني كان متنوعاً، ولا جامع بينهم إلا الانهيار الأخلاقي. يقظان، جواد، عبود، أبو وسيم، صباح، معمر وسعيد، عليّ وآخرون، بعضهم ضاع في خانة النسيان وقسم لا يقارن فعله بما فعله هؤلاء فالصمت عنهم أولى. كانوا قساة جداً وفي منتهى

الهمجية، ولم أفهم نوبة الغضب أو الحقد التي كانت تنتابهم على زملائهم السجناء ولأسباب واهية حتى أنه من العبث بحق أن تسمى حجة، ولم أجد مبرراً لفعلهم ولو قلبته سبعين مرة. خوفهم من ضياع مكاسبهم التافهة أو خشيتهم من عقاب عناصر الأمن، لا تبرر وشايتهم على أشياء ما كان للحرس أن يستدلوا عليها أبداً. لم أزل أسأل ما الذي كان يدعوهم إلى هذا الإخلاص والولاء في إيذاء الآخرين؟

انهيار الرابط الإنساني يمكن أن يحول الضحية إلى مجرد رقم عند الجلادين، فتُسحب من الضحية إنسانيتها، ويتم اختزالها في جملة "خونة عملاء" كي يصبح فعل التعذيب فعلاً اعتيادياً، لكن ما الذي يحدث حتى يصبح كل هذا العدوان على إنسان آخر ممكناً، ويمارس بإصرار وتفنن، بل بتشفّ وتلذذ، من سجين لا تختلف تهمته عن تهمتي؟ لم يكن دافعهم للانخراط بهذا السلوك المشين المقزز أن إدارة السجن فرقت بين السجناء من خلال تقسيمهم إلى قسمين، واحد لصغار السن من أمثالي، وآخر للكبار، ولا مرة أخرى عندما افتتحت قسماً خاصاً للسيئين بنظرها، طبعاً السيء والحسن مفهوم نسبي، فالسيء عندهم كان من يبدي صلابة ويرفض الذل

والخضوع. في كل هذه المرات بقي سلوك الأغلبية ثابتاً مع تغير سن السجناء أو مع التمييز في المعاملة، ولم يتبدل أو ينحرف نحو هاوية السقوط الأخلاقي، ولم ينجحوا في تحريض بعضهم ضد البعض الآخر في كل محاولات التفرقة.

مع ذلك عليَّ أن أعترف بأنه عندما دخلت زنزانة السجن لأول مرة طرقني شعور غامض، داهم كل ذرة في كياني وأحسست بانقباض قاتم ثقيل في نفسي. رأيت جدران الزنزانة موحشة كريهة رهيبة، وشعرت بنفور من كل شيء فيها، وتحول اضطراب أعصابي إلى رعشة حمى، جعلت جسدي يرتجف من البرد أثناء القيظ، واسترسلت في أحلامٍ، بل في كوابيس أردد بصوت أخرس مزق أحشائي، يا إلهي هل سأبقى هنا لعشرين عاماً؟ بلغ بي الذهول حداً أفقدني الإحساس بما حولي، ولم اعد أرى الأشياء كمن فقد صوابه وبات يرسل نظرات تائهة طائشة في كل اتجاه بحثاً عن شيء يستعين به ليسترد وعيه. كانت أنفاسي تتقطع وساقاي تترنحان من تحتي، كأني في كابوس يلاحقني فيه شيطان بوجه بشع، أجري أريد الإفلات منه فأسقط مغمياً بين أقدامه.

لا أعرف طريقاً كي أتذكر فيه حال هذه الزنزانة، بل ولا أتذكر كم مكثت فيها؟ لا أعلم كم بقيت فيها يوماً، يومين أو أكثر، ولا أعرف سبب هذا الشعور الذي جثم على صدري. لم يخفف عنيّ هذا الانفعال الجامح بمشاعره الفظيعة لقائي بمحمد كوين، وهو أحد أبناء مدينتي الشطرة، الذي فغر فاه وأصابه العجب لرؤيتي، فندت من فمه صرخة وجع:

- حتى أنت جلبوك!

لم يخفف عني لقاؤه بعد كلمته الموجعة هذه، بل زاد من همومي وآلامي، إذ تم نقله في اليوم ذاته إلى الأقسام المفتوحة مع سجناء آخرين. أما أنا فتم نقلي لاحقاً مع سجناء صغار السن إلى ق ٢ غ ١٩، وهناك شعرت أنني أنتمي إلى هذا المكان، لماذا؟ أيضاً لست أدري.

# ١٩

***

أسماء المنافقين كثيرة، إنما بعضهم كان قبيحاً لدرجة لا تصدق، مثل صباح وعلِيّ جفجير. كان مسعى جميع المنافقين أن يولّدوا فينا إحساساً عالياً بالخمول والخوف، بشيء مبالغ فيه من التعسف، كي يشعروننا بأنهم النظام، وأنهم يسيطرون على حياتنا، ولا نملك أي خصوصية ولا نعيش لحظة واحدة من الخلوة سعياً منهم لسلب شخصياتنا بشتى الوسائل، لتكون لهم السلطة المطلقة.

التمست أحياناً عذراً للجلادين من عناصر الأمن في ممارسة التعذيب عندما يغيب عندهم أي شعور بالذنب من خلال إسباغهم المشروعية على فعلهم، بجعله قصاصاً نبيلاً، للدفاع عن قضايا كبرى من وجهة نظرهم لا يجوز أن تهدد. إنما ممارسة المنافقين للتعذيب بهذا التلذذ والتشفي السادي لم يكن ينفعها هذا العذر. شيء واحد كان يجمع المنافقين، وهو أنهم نكرات في أي اجتماع بشري نزلوا فيه، لذا لم يرتقوا إلى أكثر من مجرد

أداة، تفقد قيمتها حين تصبح غير فعالة، ولذا لم يفتأ أحدهم في صب كل ما في جعبته من سادية وهوس بالعنف، كي يثبت كفاءته باستمرار أمام عناصر الأمن. إحساسهم الدفين بالخواء والعجز وبأنهم بلا قيمة، دفعهم لملئه بتحطيم الآخرين وسحقهم، وبإنزالهم مرتبة اللاشيء كي يصبحوا هم شيئاً. السلوك العدواني كان يبدو عندهم حاجة ملحة ماسة لإسقاط ما يستترون عليه وما يضمرونه من هزال وخواء على ضحاياهم.

إبتكر هؤلاء المنافقين حالات تعذيب، منها ربط اليدين والرجلين على قضبان الزنزانة، ويبقى الضحية واقفاً ربما لأيام هكذا، لا يسمح له حتى بقضاء حاجته. ولكن التضامن بين السجناء كان قائماً، كما انبرى في مرة سيد عدنان من أهالي مدينة السماوة مثلاً، وحل بدل شخص آخر كان مصلوباً على قضبان الزنزانة رقم ٤. تسلل في جنح الليل لينزل ذلك المعذّب، ومنحه مساحة لتناول زاد يقويه على المقاومة، وليقضي حاجته ويأخذ هجعة بسيطة، ثم يعود إلى ما كان عليه قبل أن يلاحظه أحد المنافقين أو يدخل عنصر أمن. نعم كانت مهمة صعبة للغاية أقرب للاستحالة، وكانت خفقات قلوبنا تدق أسرع من جري عداء في مسافة قصيرة، ولكن الكل كان

ومتضامناً، ويقدم ما يسهل إنجاز العملية بنجاح وقد تمت بالفعل.

ستار الليل الكثيف لم يكن يلقي أماناً تاماً كوحشته وثقله، فبعض المنافقين كان يبرع في الوشاية، فتراه ينهض من نومته، وينسل بخفة مثل قط رشيق عسى أن يرى أحداً قد نهض من نومه ولو لقضاء حاجته، أو اثنين لازمهما الأرق فتهامسا بكلمات عامة، حينها "يا ويلهم وسواد ليلهم" لو ظفر بهم على هذا الحال. في الصباح تقدم أسماءهم لأفراد الأمن لإخراجهم من الزنزانة، لأن المفاتيح لا تسلم للمنافقين أبداً رغم ولائهم المطلق للأمن. وهنا يظهر لؤم "علِيّ جفجير" الذي يترك الكيبل والهراوة، ويستخدم الجفجير المعدني القاسي ليهوي به على عظام الضحية، وحتى لا يفلت مُعَذَّب من ضرباته كان يفرغ القدور الكبيرة من الطعام ثم يضع السجين في أحدها، وينزل عليه جام خبثه، ولهذا أطلق عليه هذا الاسم.

في ممارسة العنف والقسوة كانوا يزدرون الضعفاء الذين ينهارون بسرعة، كأنما يعدّونهم غير جديرين بسطوتهم، وبالضد من ذلك يفضلون المعتقل العنيد الذي يقاوم بصلابة، فيفجرون أقصى درجة سادية تتوفر

عنـدهم، للبـدء بالتشـفي والتلـذذ برؤيـة آثـار التعـذيب، وحينمـا يفشـلون فـي كسـر إرادة أسـيرهم المكبـل، ينفجـر جنون غاضـب لـديهم. لـم يكـن التعـذيب معركـة إخضـاع وكسـر مقاومـة باسـتخدام العنـف فقـط، فـإطلاق العنـان للسـادية، لـم ينحصـر فـي قهـر الإرادة لانتـزاع الاعتـراف. وتجريعنـا العـذاب لـم يكـن عمـلاً لبلـوغ قمـة الإيـذاء وحسب، بل وللاستمتاع أيضاً.

في يوم أخرج النقيب غالب الدوري شابين يافعين في سن المراهقة يعانيان من اكتئاب، ولفرط تفاقم حالتهما النفسية، كنا جميعاً نظنهما قد فقدا عقليهما تماماً. كان يريد إن يهزأ بنا بالسخرية من حالهما، فقرر أن يقيم حفلة ضحك لعناصره. أمرهمـا بـأن يتقـاتلا ويضـرب أحـدهما الآخر، نظرا إليه وابتسامة باهتة على محياهما، وأجاباه بهـدوء وسـكينة، ولـم يظهـر علـى وجنتيهمـا وجـل ولا ارتعشت كلماتهما خوفاً منه:

- إن هذا أخي، وانا أحبه، فكيف لي أن أضربه؟

ثـم اقتربـا مـن بعـض وتعانقـا وتبـادلا القبـل علـى الوجنات، وقد اتسعت ابتسامتيهما فغطت بظلالها وجه ألف سجين تقريباً كان يشهد المنظر. مشهد وضعه أمام عجزه الدفين وأحيا فيه الشعور بالنقص، فصار ينقل طرفه

بسرعة في وجوه السجناء من وراء القضبان، ويرى في كل نظرة منهم ظفراً وقوة، لا يعلم أين يختبأ منها. بدا لي حينها مثل كيان خاوٍ مخصي، سقطت فنونه وتلاشت قوته الهائلة التي كانت تغذي نشوة سمعته الرهيبة. القاتل السفاح الذي كان للتو يشعر بالفخر والسعادة، بدا قزماً ضئيلاً يبحث يائساً عن مهرب لتوكيد ذاته.

لم يظهر لهذا الجلاد القاسي الدميم من وجود إلا من خلال الألم، فرض وجوده بالقهر، إلا أنه انهار الآن كله بحركة صغيرة من هذين اليافعين البرعمين، وكل ما كان منه أصبح رؤى غائمة وخيالات. ما لفع به نفسه من كذب عنيد وما كان يخشى رؤيته، سطع فجأة أمام عينيه اللتين كانتا تعشقان الظلام وتعاندان رؤية النور. حجم الكبر والتعالي المهول كان له سقوط هائل، وكأني كنت أسمع انكساره مثل ناطحة سحاب زجاجية شظيت إلى فتات، ودوى انهيارها بقرقعة هائلة ضجت لها أرجاء الكون. زعق كثيراً أراد أن يرعبنا بصراخه وهياجه، إنما أي ناظر إليه ساعتها كان سيدرك أن هذا الجنون الغاضب طبل أجوف وصدى خواء يحمل سمات التعثر والاضطراب. لذا تبع ذلك فصل زاد المسرحية الفاشلة بؤساً، ففي صباح اليوم التالي أمر النقيب بإفطار مميز

بتوزيع خمسة أرغفة خبز بدلاً من واحدة لكل سجين ليداري فشله المريع.

لم يكن بوسعنا أمام هذه المهزلة المبكية الدامية إلا أن نسخر منها، ونتعامل مع وجودنا في السجن على أنه أمر واقع، لا ينبغي لوجود أجسادنا فيه أن يحبس أرواحنا معها. فكان الرد بحركة عفوية تلقائية أو بوعي وشعور (لا أستطيع أن أقرر أي منها كان الحافز) أن نواظب على الضحك والابتسام تحدياً، ولربما نتعمد بخبث أحياناً استفزاز الجلادين. العيد فرحة عفوية تهجع في ذوات البشر تذيب ترسبات النكد، وتزيح الصدأ الذي تكثف في الأعماق، إلا أنه في صبيحة يوم عيد دخل إلى ق٢ أحد الجلادين، طافحاً بالضجر لا يتوقف عن الدمدمة شاكياً متبرماً، لأنه أجبر على البقاء في السجن بمناوبة تستغرق عطلة العيد بأكملها. دخل وهو يمني نفسه بأن يرى السجناء في تعاسة إضافية في هذا اليوم، وأن الكآبة سوف تحل بثقلها الباهظ على النفوس قبل الوجوه، لأن ليلة العيد ليلة تذكر الأحزان واسترجاعها، فهي وسادتنا والدثار، وانها تتدفق مع دماءنا، وتسري في أرواحنا.

ظن أن العيد في السجن سوف يدفعنا إلى الانسحاب أكثر إلى قوقعة الحزن، فالسجن لوحة قاتمة تذكر

بعذابات وخسائر الحياة، أما الجانب المضيء منها فقد تلاشى في عتمة هذه اللوحة. كان يحسب أن السجين لابد وأنه غلّ نفسه بجذور التعاسة في أعماق روحه بقوة، وأصبحت الحياة عنده خالية من الأمل، وصارت ذكريات الفرح منبعاً للبؤس فهو لا يفرح أبداً. غير أن الواقع كان خلاف ذلك، فذكريات الطفولة والعيد كانت ربيعاً دائماً ومساحة فرح مستوطنة داخل ذواتنا، وبوابة لصياغة البهجة والحبور نلجأ إليها مع تكاثف الحزن. عندما أصبح الشرطي في داخل القسم كان قد هيأ نفسه للتنكيل بنا وزيادة آلامنا ومواجعنا بتقريعنا ولومنا، لعله بذلك ينسى مصيبته، إنما العكس قد حصل فأصابه إحباط شديد، عندما رآنا نتبادل التهاني، والابتسامات وأصوات الضحك تملأ فضاء الحيز الضيق المزدحم مع أننا محرومون من كل شيء تقريباً. منظر جعله يستشيط غضباً، ويردد بصوت عال محدثاً نفسه:

- ما هذا يا ربي! هل هؤلاء سعداء، أنهم في السجن؟

انصافاً للحقيقة حتى أكون صادقاً في رواية كل ما جرى، المكان كان يعج بالضعفاء أيضاً. أحياناً يتمسك المرء بما يؤذيه، لأن الجلاد يملك كل شيء ويتحكم برغباته ويتدخل في جميع تفصيلات حياته حتى المتناهية

في الصغر، ولا يعود يرى أحداً سواه، فيظن أن وجوده قد تعلق به؛ لذا يلتصق به ولا يتجنب إغضابه وحسب، بل ويسترضيه بالتملق رغم أنه يحبسه ويجوعه، ويمحو كل الصدمات والإساءات التي لحقت به منه، ويخاطبه كأنه ورقة بيضاء لا شائبة فيها. في أحد الأيام نهض رجل في الثلاثينات من عمره، كان طويلاً ممتلئ الجثة جهماً يتقدمه كرشه، ويقدم نفسه على أنه من أصحاب اختصاص أدبي وأنه درس في جامعة مرموقة، وكان بالفعل خطيباً مفوهاً، إنما في حقيقته كان طبلاً أجوف. طلب من مسؤول السجن النقيب غالب الدوري أن يأذن له بالكلام قائلاً له بلغة فصحى:

- سيدي عندي طلبان، الأول إن أكثرنا من أتباع حزب البعث وكنّا نملك درجات حزبية بين مؤيد ونصير في الحزب؛ لذا أطلب من سيادتكم السماح لنا بعقد الاجتماعات الحزبية. والأمر الثاني: إن الأخبار المرئية في متابعة خطب ولقاءات السيد الرئيس مهمة لنا، فأرجو وضع مرايا كبيرة عاكسة أمام الزنزانات، كي نتمكن من متابعتها بشكل أفضل.

- إن الحزب ولد حراً وسيبقى حراً، وليس ليعيش في السجون. ولم يعبأ بكلامه المتبقي. هكذا رد عليه غالب الدوري باستصغار ليس لقوله فقط، بل لكل شأنه.

## ٢٠

***

نقلت إلى ق٢ الزنزانة ١٩، دلفت فيها مهدوداً، منهك القوى. أفكار سود تعشعش في دماغي، وتطرقه بعنف لم ألفه فيما سبق من عمري القصير. جلست وسط الزنزانة أحدث نفسي، بأن أحسن ما في حياتي قد مات، إذا كنت قد حييت بالفعل من قبل. تدور عيناي زائغة تائهة في فضاء الزنزانة الضيق الخانق، أرى الأشياء باردة ميتة، وأتخيل أن أعيش هنا سنواتي القادمة كلها حتى أبلغ سن الشيخوخة. ما أصعب الوحدة، وما أشدها بعيداً عن الأهل والأحباء، يا لبؤس وشناعة مستقبلي! حينما أجلس في كهولتي سأتحسر على شبابي وحياتي السالفة، هل سوف انتبه وأتذكر أنه لم يكن هناك في شبابي من شيء أصلاً يستحق الحسرة على انقضائه في هذا السجن، وأن ما كان بقضه وقضيضه ما هو إلا أضغاث أحلام وعدم، وما كنت إلا صفراً وحيداً في معزل عن الأرقام التي يزدحم بها الكون.

قبيل الغروب كان يأتي من جهاز تلفاز بعيد عن الزنزانة صوت واضح يشق ضباب الروح وغبرة الظلام الذي خيم عليها، يحمل صوت حميد منصور:

يا مسية العافية عليكم يهلنا
يا هوا الهاب...
من الأحباب...
جفلت كَلبي غفل بأنسامهم
ذكرتني بكل هني من أيامهم
يا مسية العافية عليكم يهلنه
شما يجي منكم خبر تزيد المَحَنْة
يا هوا لأيامهم حنينه
يا هوا لعيونهم غنينه
مر عليهم يا هوا ومر بينه
وشوفهم لو وصلت طارينه
شلونهم.. ذولاك لو ناسينه؟
يا مسية العافية عليكم يهلنه

مساء العافية عليك يا أماه، هل تصلك الآن أشعة شمس الأصيل بظلالها المائلة الطويلة، أم أنها تساقط فوقك الظلال على الظلال في حجرتك النائية المظلمة لتكوم عليك حزناً وظلمات فوق ما أنت فيه. أم إن هذه

الزوايا التائهة لها شمس خاصة بها انطفأت منذ حين، ولم تعد تشرق أبداً؟ هل تنشجين يا أماه الآن منتحبة، وتطلقين صرخات وأنات، وأنت تقبضين على طرف وشاحك الأسود وتشدينه لصدرك بعنف، أم تجلسين ساكنة تبتهلين بكلمات لم تعد تفهمها حتى ملائكة السماء، بعد أن ابتلت حروفها في بحر دموعك، وغدت طرية لا تقوى على التماسك؟ أنّى لها ذلك وقرطاسها قلبك المهشم، كما هي سدود مآقي عيونك التي جرفت بتيار ماء أجاج جامح. في أي حال أنت يا أماه؟ هل أمسيت جلداً وعظماً، وانطفأت عيناك الواسعتان؟ هل حفت بهما هالة زرقاء فصرت تنظرين بنظرات مشدوهة خالية من الحياة في كل اتجاه بحثاً عن صغيرك، فلا ترين شيئاً البتة، لا طفلك علِيّ ولا غيره؟

وأنا في هذا الحال المزري من طوفان المشاعر وتضارب الأفكار واختلاطها وغمامة حزن وبؤس تغطيني بالكامل وتسدل ستارها عليَّ، وإذا برجل كهل نحيل قصير القامة بلحية بيضاء، وشعلة كثيفة بلون غبش الفجر الصاعد إلى السماء تعلو رأسه يقف على رأسي. كان الرجل من مدينة القاسم في الحلة ويدعى كاظم خلوف، وهو كالآخرين في حالٍ مزرٍ من ضيق اليد والعسر،

والحرمان من كل شيء، إلا أنه نجح في الاحتفاظ ببعض مدخرات قليلة كانت في جيبه ساعة الاعتقال. كان يشتري بها سجائر ولوازم أخرى من حانوت جوال، ولا يبخل على زملائه في الزنزانة، بل يشاطرهم كل ما يملك، وأعظم الكرم ما يكون مع قلة اليد.

الكريم هو الذي يبسط يده بكل شيء تحت تصرفه من مال، وقت، مشاعر، وانفعالات، ولا يمنع شيئاً بحوزته عن الآخرين، فيستطيع أن ينبت الحياة من العدم. وفي ظروف المحنة حيث التشديد والضنك تتساقط ثياب الزيف التي يرتديها الناس في أوقات الرخاء والرفاهية فيعودوا ليلبسوا ثياب الحقيقة التي تكشف حقيقة طبائعهم وأصل سجاياهم. ولا مكان أكثر من السجن كاشفاً لحقائق الناس فقد تهاوت قامات سامقة وظهر خواؤها وضعفها مع أول حملة عاتية من العسر، وسمق بالمقابل آخرون كان لا ينظر لهم إلا بعين الاستصغار. وكم من شخص من أمثال كاظم خلوف تجلت طهارتهم وسطعت شمسهم رغم كل العتمة التي أرادوا أن يطمروا بها تلك الفطرة الإنسانية الجميلة.

رأيت الرجل يقف فوقي، وإذا بسيجارة تقع في حضني. تفرست فيها بعيون متسمرة لا تزيغ يميناً ولا

يساراً، وأطلت التأمل فيها، وعصفت بيّ موجة جديدة من الأفكار، ماذا أفعل بها؟ دخلت في دوامة، بين نبذها أو ضمها إلى شفتي. لم أجرؤ على مداعبتها بأناملي، مع أن شوقاً عارماً استبد بي فكيف لي أن أدخنها بعد هجرها لي طوال الأشهر المنصرمة، فأنا لم أتذوق طعمها إلا في صالة الانتظار في يوم المحكمة، حينما منحني رجل سيجارة. لم أعرف وقتها كيف وصلت السجائر إلى المعتقلين، إلا أني رأيتهم يدخنون، ولم أبال كثيراً بالسؤال كيف حصلوا عليها، أو كيف وزعت عليهم؟ مدَّ شخص لا أعرفه يده وقدم لي سيجارة، وكان حجمها أطول من المعتاد يطلق عليها "سومر سن طويل" كأنما جاءت لتعوضني عن الحرمان طيلة الأشهر الماضية. أشعلها لي وهو يقول دخن! لم يمنحني فرصة للتفكير ولا التردد كما يحصل الآن. أما الشعور بالدوار كأن القاعة تدور بي والرغبة في التقيؤ فقد حصل هنا وهناك.

تابعت النظر إلى السيجارة الملقاة في حضني، وسألت نفسي، لو دخنتها اليوم فكيف لي أن اضمن وجودها في قادم الأيام؟ في خضم هذا التفكير وتلك الهواجس التي ملأت رأسي، وإذا بعود ثقاب يضرم، وينهي دوامتي الجديدة من اضطراب الأفكار، فاستسلمت لإغرائها.

شرعت أرتشف منها أنفاساً عميقة، أحسست معها أن العالم يدور من حولي، ورعشة تسري في جسدي، ولكني شعرت بلذة وفرح لأني استعدت واحدة من عاداتي من العالم القديم الذي كنت أسكن فيه والذي توارى خلف جدران المعتقل. نشوة مؤقتة مثل سائر اللذات الغريزية تنتهي في ساعتها وتجر وراءها ثقلاً ومعاناة طويلة، تباً لها فإنها سم حقيقي لا أستطيع تركه.

لم اعرف إنها ستقودني إلى سعال دائم وحكة في حلقي ولهاث واختناق، وفوق ذلك لا املك مالاً لشرائها. أيام طويلة لا تتوفر وحينما تحضر نشترك عدة أشخاص بسيجارة واحدة قد يصل عددنا إلى عشرة. صراع مرير مع العادات والغريزة حفزني أن أتخذ قراراً صعباً بعدم التدخين مطلقاً في السجن مع أني لم أزل مدمناً عليها. كان قراراً حاسماً لا رجعة فيه متحملاً فراقها الصعب وأشحت بنفسي عنها بالكامل، حتى أنه حينما سنحت لأحد رفاق الزنزانة أن يحظى بزيارة من أهله بعد عدة سنوات قدم لي كهدية ثلاثة علب سجائر، إلا أني منحتها جميعاً للآخرين، ولم أرجع إلى عادتي إلا بعد أن بدأت الزيارات المنتظمة من قبل عائلتي بعد سبع سنوات

تقريباً من اعتقالي، ومن وقتها بدأت بالحصول على ما يكفيني من السجائر إلى موعد الزيارة التالية.

# ٢١

***

مرت الأيام والليالي تواليًا بعدها وألفت العيش في مجتمعي الجديد، مستغرقاً في حياتي الجديدة بجد، لا أتوانى عن المشاركة في أي عمل جماعي في الزنزانة التي صارت تسميتها "الغرفة". كنت أتطوع بالمشاركة في تنظيف الأرضية خصوصاً بعد أوقات الطعام، رغم أننا كنّا نقسم العمل بحسب الدور، لكن هذا النظام لم يعقني عن مساعدة المناوب عليها. كان غسل الملابس عملية شاقة مع ندرة المياه وشحتها المتعمدة، إذ لم يكن يصلنا الماء إلا في ساعتين في اليوم، وعلينا تخزينه في برميل صغير لا تعدو حصة الواحد منا في الليلة واليوم لتراً واحداً فقط. لذا كان الغسل شأناً جماعياً لا استقلالية فيه وكنت أسعى بجد إلى أن أكون أحد المساهمين في هذا العمل تخفيفاً عن المرضى وكبار السن. استمرت حياتي رتيبة بين مشاهد تعذيب يومي وبين التضامن بين السجناء في داخل كل غرفة في مواجهة الضغوط الجسدية

والنفسية إلى أن حانت لحظة بداية قصة جديدة من حكايتي الطويلة من مرض سوف تلازمني آثاره العمر كله.

ابتدأ الألم كعادته من فقرات العنق، إنما هذه المرة بوقع أكثر وجعاً، فقد جاء مثل إعصار لم تُجْدِ مكابرتي معه، وبدأت أتنفس الموت مع الخدر الذي دب في كل موضع من جسمي، أعقبه سريعاً شلل تام. حينما يغشى النعاس عيني الكابيتان، كانت أوصالي ترتعد وتبدأ في الارتعاش بحركة سريعة تحرمني النوم. التوت ساقاي النحيلتان ورقّت عضلاتي، واستمرت حالتي بالتدهور يوماً تلو الآخر، وخارت قواي إلى حد عييت فيه عن رفع ملعقة الطعام من الصحن فضلاً عن إيصالها إلى فمي. هوت أجفاني واسترخى جسدي بالكامل وبدأ غيابي عن الوعي يتكرر ولو على شكل غفوة قصيرة هنا وهناك تريحني من مضض الوجع وبرح الآلام. قصوري وضعفي عن رفع يدي دفع زملائي لإطعامي، بل كان عليهم أن يجعلونه مهروساً لأن المضغ بات صعباً عليَّ. بلغ بيّ النحول حداً جعلني كطائر بلا ريش مما أقلق زملائي في الزنزانة، ثم بدأ ينضج هذا القلق عندهم كما هو عندي، ويتخذ صورة سؤال رهيب، يضني القلب والفكر، ويطلب

جواباً لا سبيل إلى تفاديه، هل أطل مستقبلنا القاتم من نافذتي؟ وهل فتحت حفرة الموت من جديد لتبتلع مرشحاً جديداً؟ هل بدأ طائره يحوم في سماء حفرتنا المظلمة، فجعلني مرشحه الأثير بعد أن ضرب عصفورين بحجر واحد، إذ جعلني ميتاً وحياً في الوقت نفسه؟ كان مقدراً لنا جميعاً أن نموت في لجة زنزانة صممت لتكون قبراً يبتلع أجسادنا رويداً رويداً بصمت، بعد أن نعاني كل الفظاعات حتى يصبح الموت كأنه خلاص، ولكن هل كتب عليَّ أن أرحل مكبل اليدين بلا قيود عاجزاً عن الحركة مشلولاً، إلا من حركة وئيدة برأسي وبأطراف عيني؟

مراقب الغرفة "صادق زين العابدين" اصطفى زاوية خاصة لي لأرقد فيها، إذ لم يكن من السهل الحصول على موضع في زنزانة تضم أكثر من أربعين شخصاً ولا تتجاوز مساحتها خمسة وعشرين متراً مربعاً، مع أنها ليست الزنزانة الأكثر ازدحاماً التي مررت بها. فبعد خمسة وعشرين يوماً قضيتها في التحقيق حشرت في زنزانة مساحتها ستة أمتار مربعة تضم ستة وثلاثين شخصاً، وبالطبع زاد عددهم واحداً بانضمامي إليهم. إذن أن أجد زاوية اضطجع فيها على ظهري لأول مرة من

سنوات وإن كانت على حصير الألم وبجوار مرحاض يتجمهر السجناء عنده، لأنه بيت الخلاء الوحيد، وحتى لو توسدت بطانية وسخة، أو وضعت رأسي على مخدة صنعت من مجموع أشياء بالية، مع هذا فإنه كان يشبه الحصول على فراش وثير في مخدع دافئ بقصر منيف. قد يبدو الأمر أشبه بمزحة وقحة ومهزلة ساخرة، إلا إن أكثر الأمور تفاهة وأقلها قيمة وما لا شأن لها أو اعتبار في الأيام العادية يصبح في المحن العصيبة والأيام الصعبة أكثر ما يُرغب فيه وأبعد ما يُتمنى.

من الصعوبة بمكان أن أوضح مزايا تلك الزاوية التي اضطجعت فيها، إلا حينما أقارنها بالزنزانة رقم ٢٤ التي شهدت رحلة رحمن جلود إلى مزرعته الأبدية. في تلك الزنزانة واصلت الوقوف على قدمي لساعات حتى تورمتا، ولحسن حظي كان يقف قربي شخص من أهالي الكاظمية بدين قوي البنية، صار يدوس على قدمي بين حين وآخر كي يحرك الدماء المتوقفة فيها. كان ألماً فظيعاً ومع ذلك كنت أكتمه، لأن أي صوت تأوه يخرج مني كان سوف يعرضني لغضب الحرس وعقوبة جديدة تنالني. في تلك الزنزانة كان الوحيد الذي يجلس هو فيصل من أهالي ديالى، لان الشك كان يراودنا بأن الرجل

مـريض بالسـل الرئـوي. ظـل يقعـد منزويـاً قريبـاً مـن المرحـاض بعينين غـائرتين ينظر في الفراغ كأنما يخترق بصره كل الحواجز، يحدق في فضاءات بعيدة لا تبلغها إلا الأرواح المجـردة. لـم يكـن يـتكلم إلا نـادراً وحينهـا يصدر منه صوت باهت كما لـو انه كـان يخرج من غـور جـب عميـق. تهالـك جسـمه مـن الإرهـاق ولـم يبـق مـن منـاص أمامـه إلا أن يتجـرع آلامـه ويبتلـع همومـه. كنـت أقف ملاصقاً لـه، ونتناول الطعام معاً، لأن أقصى ما كـان يهمني في ذلك ألا يداخله شعور بالغربة أو العزلـة، لأن تـدهور الحالـة النفسية في المعتقـل كـان سيفاقم مصاعبه ويعقد من وضعه. ورغـم كـل هـذه الإجراءات الاحتياطية فإنها لـم تسعف بالحد مـن تراجع صحته وانتكاسها إلى حد خطير؛ ليخرج معها من الزنزانة إلى مكـان مـن يقصده لا يعود منه أبداً.

يبدو أن المـوت في المعتقلات والسجون السرية زائر لا يورث الحـزن فقـط، بـل لربمـا يـأتي بهبات أيضاً، فبعد خروج فيصل جاءت مجموعة من عناصر الأمـن. جردونـا مـن سائر ملابسنا بالتمـام والكمـال، وشـرعوا في تطهيـر الزنزانـة بالمعقمـات، ثـم أدخلونـا مجـدداً إليهـا بعـد إن جعلـوا منهـا حمامـاً عامـاً، إذ فتحـوا علينـا صـنبور مـاء

للاستحمام. كنّا نخرج واحداً تلو الآخر كي نتسلم قطعتي ملابس داخلية وجلباباً صيفياً، ثم نقلنا لحجرة جديدة. لا يُعلم أين استقر جسده في مثواه الأخير بعد رحلة العناء الأخيرة، التي بسببها منحنا فرصة جديدة ولو بأمل ضئيل في تجدد الحياة. استبدلنا ما يسترنا من خرق رثة بالية مضمخة بدماء حفلات التعذيب والعرق بقطع جديدة نظيفة، وتخلصت أجسادنا لأول مرة منذ عدة أشهر من العفونة والعرق وأسراب القمل.

# ٢٢

***

في هذا الوضع الشائك كان الموضوع الأشد صعوبة وتعقيداً هو، إقناع الحرس بضرورة نقلي إلى العيادة الطبية في قسم الأحكام الخاصة. بعد مرور فترة قصيرة وصلت حالة الشلل إلى الفخذين، وبدا كما لو أني عود ثقاب سرعان ما سوف يخمد توهجه. حينئذ أصاب الهلع مراقب الغرفة، وما أن فتح باب القسم لإدخال وجبة الطعام، بدأ يصيح بصوت مرتفع هستيري "عندنا مريض.. عندنا مريض". كان يكرر عبارته بغضب وهيجان غير معتاد في مخاطبة عناصر الأمن، إلا أنه لم يظفر بغير الجواب المألوف. جوابهم التقليدي لازمة قبيحة، لا يتوقفون عن تكرارها، والرضا به كان عسيراً. لم يكن أمامه وهو يرى نجمة الموت يلمع بريقها فوق رأسي إلا مواصلة التحدي والطرق على آذانهم، رغم أن محاولاته كانت كاللهاث وراء السراب فلا بلوغ للماء ولا انقشاع للسراب. تحمل شراستهم وصبر على ردودهم المستفزة

التي ألفناها منذ أن أسدلوا علينا ستار العتمة، يوم أقاموا هذا الجدار الحديدي بيننا وبين كل ما يتصل بالعالم. كانت خلاصة جوابهم:

- بمرض أو غيره، لا يخرج أحد من هنا، فقط عندما يموت أخبرونا. وقتها فقط يكون قد نال جواز السفر. وماذا عليه لو بقي معكم، ألستم في فندق تأكلون وتنامون مجاناً؟ وإن مات فإلى أين سيذهب؟ أليس إلى المزبلة؟ فليبق هنا خير له.

استمرت المحاولات إلى إن رضخ الأمن لها، فأخرجوني إلى ردهة الطبابة، وهي غرفة صغيرة تحوي على إسعافات أولية وبعض العقاقير الأساسية، إلا أنها كانت نقلة كبيرة، فهناك فرق هائل بين أن تكون معدماً لا تملك شيئاً البتة، وبين أن تملك القليل. لا توجد مساحة للمقارنة بين الوجود والعدم، فإن الفرق بين الصغير والكبير والقليل والكثير يمكن تخيله، أما الفرق بين الوجود والعدم فهو لا نهائي ولا يمكن لعقل أن يتخيله، وهذا الذي كان بين الطبابة وعدمها.

خرجت برفقة مريض آخر، مسنداً عليه بالكامل أو بالأحرى محمولاً، لأني فقدت القدرة على السير تماماً، وتم عرضي لاحقاً على طبيب فأوجز حالتي بالتفاتة إلى

عناصر الأمن المرافقة، قائلاً: إن هذا الشخص مشلول، وغداً سيتوقف كامل جسده عن الحركة. المعلومات الشحيحة عن وضعي الصحي أشاعت جواً من الخوف بين السجناء المرضى المتواجدين في غرفة الطبابة خشية أن يكون المرض معدياً، لذا بدأت حملة تعقيم الأواني التي أتناول الطعام فيها، قد يذهب الخيال بعيداً، حينما أقول تعقيماً، فإنه في الواقع لم يكن أكثر من غسل الأواني بالصابون الذي توفر شيء منه في هذا المكان. لم أر أحداً بينهم يشمئز من حالتي، بل كانوا على العكس تماماً يتفانون في خدمتي، حتى حينما يتحدثون فيما بينهم كانوا يتهامسون كي لا اسمع ما يزعجني، خصوصاً عندما يتعلق الأمر بوضعي المتردي، خشية أن تتأثر معنوياتي. لم تكن عيادة حقيقية، بل هي مجرد اسم بلا مسمى؛ فلم يكن هناك من مستخدم فيها البتة، حتى الطبيب العامل فيها واسمه "منصور" كان سجيناً هو الآخر.

اندفعوا لمساعدتي، بعد أن أصبحت عاجزاً بالمعنى الحرفي للكلمة، لكن السيء لم يكن قد أتى بعد. إذ بعد يومين من وصولي الطبابة عزفت عن تناول الطعام وشرب الماء وتكرر الأمر في اليوم التالي؛ فتقدم نحوي "شريف" الذي كان يعاني من مرض اللوكيميا مستفهماً

ومستغرباً. حاول أن يشجعني بكلمات طيبة لرفع معنوياتي، إلا أني كنت قد تجاوزت ذلك بكثير وبلغت نقطة حرجة. امتنعت عن الأكل لأني لم أعد أشعر بقدرة على التغوط أو التبول، وكان أمراً مقلقاً له كما هو لي. لم يكن هناك مقعد متحرك يساعد على نقلي إلى المرحاض؛ فاستعانوا بصندوق بلاستيكي يستخدم في نقل الخضار كبديل عنه. دخل شريف معي إلى الخلاء، أجلسني ورفع ملابسي، ووقف خارجاً ينتظرني لأكثر من ساعة على أمل أن أتمكن من إفراغ بعض ما في مثانتي، لكن بلا جدوى. توقف كل شيء في هذا الجسد عن النشاط والحركة بشكل مطلق، ولم يتبق فيه إلا حركة بسيطة في الرأس تكاد لا تلحظ، يمكنني معها أن أومأ نحو اليمين واليسار. ألم فضيع يضطرم في أحشائي مثل نار مستعرة، يذكرني أني ما زلت كائناً حياً يواصل تجرع المزيد من العذاب المخصص له. ألم له أنياب حادة تنهش فيّ من الداخل وتغوص عميقاً حتى خيم الحزن عليَّ مثل غمامة ثقيلة مشبعة بالسواد. كنت أشعر بأني أدور في فلك مظلم خاو وحيداً وتنزف روحي، ولكن لا تنتهي دورتي أبداً ولن يصلها الموت مطلقاً.

فقدت الإحساس بأي مؤثر خارجي، ولم أعد أشعر فرقاً بتغير الطقس. كان فصل الشتاء قد حل، إلا أني لم أعد قادراً على التمييز بين الحر والبرد. تلاشى كل شيء ولم أعد أعرف من إدراك الحواس سوى الذكريات القديمة. صوتي بدأ بالتلاشي هو الآخر وما عدت قادراً على النطق إلا بصعوبة، كنت أحاول أن أصلي، ولكن ما أن أحاول القراءة حتى يخفت صوتي إلى حد أخفى من الهمس، ولا أعود قادراً على فهم ما كان يخرج من بين شفتي.

استفحل الألم ولم يعد بإمكاني التكتم عليه أو احتماله، بدأت أصرخ شاكياً من ألم لافح الحرقة في مثانتي، لأني لا أستطيع أن أتبول ناهيك عن حركة الفضلات الثقيلة، التي تريد أن تخرج فلا تجد سبيلاً ولا منفذاً. كنت أشعر بحركتها في أمعائي كأنها بحر هيجته رياح عاتية وعواصف هوجاء، وبات يرغي ويزبد وتعلو أمواجه كالجبال. حدث ذلك في يوم كان الطبيب منصور يحظى بزيارة من أهله، ونتيجة لإلحاح المرضى بقرع باب الطبابة، تم استدعاء الطبيب تاركاً أهله. عندما عاين حالي لم يجد بداً من إدخال أنبوب دقيق عبر الإحليل

ليساعد في إخراج البول ونجح في إفراغ ما يعادل أربع لترات من البول المتجمع دفعة واحدة.

لم يتوقف الألم، بل شعرت بأني أغوص في مستنقع نتن وانا في كامل وعيّ، لأن الطامة الكبرى هي بإخراج فضلات الغائط، ولا سبيل إلا أن يمد أحدهم يده في دبري ليسحب الفضلات. الوجع والمعاناة لم يكن في إخراجها وحسب، بل في أن أكون مجرداً من الملابس مكشوف العورتين أمام المرضى جميعاً، فتداعت في ذهني ذكريات ساعات التعذيب الأولى في التحقيق ومعاناتها النفسية. لا أعرف ماذا أسمي هذا الشعور حينئذ، هل هو زهو أم صلف وغرور يستبد بأشد الناس بؤساً؟ مشاعر كانت تبدو حاجة ماسة حقيقية لمن لا يقبل الهزيمة بسهولة رغم أن الظروف يمكن أن تسحقه غير أنه يتزود من بؤسه وفقره بقوة هائلة تمنع الإجهاز على عزيمته وهدم إرادته. لم أكن على استعداد للتخلي عن احترامي لذاتي في أي موقف، لأني كنت أعرف أن نتيجة ذلك أني سوف أسلم رقبتي لجلادي لا ليقطعها، بل ليضع النير فيها ويسخرني لخدمته مثل ثور الساقية أو حمار الناعور.

بـدأ أحـدهم يسـحب الفضـلات، فأغمضـت عينـيّ وأسلمت نفسي للمجهول ولأمر خارج عن إرادتي كلياً. كان يوقظني من غفوتي هذه في عالمي الجديد أو غفلتي عن الحياة بصعقة تصيبني كلما مد يده لسحب مزيد من الفضلات. أين أنت أيها الموت لماذا أبطأت خطواتك؟ حب البقاء الغريزي كان قوياً عندي كل مرة، تحدياً أو حباً في الحياة، إلا في تلك اللحظة شعرت بهزيمته، وأنه يموت هو الآخر. كل ثانية تمر عليَّ كنت أحس بثقلها كأنها الدهر كله، وأدركت لحظتها معنى جحيم الآلهة وعذابها الخالد. أمضيت ثلاثة أسابيع في هذا الوضع، والسلطة المسؤولة عن السجن ترفض نقلي إلى مستشفى خارج السجن إلى أن جاءت لجنة طبية وقررت نقلي لمستشفى الرشيد العسكري، فآمالي بالحياة أوشكت على النفاد التام. تم إصعادي في سيارة إسعاف وانا جثة هامدة لا حراك فيها، جسدٌ غارقٌ في السكون، جامدٌ كتمثال لا أقوى على الالتفات يميناً ولا يساراً، كأني وحيد في عالمٍ، مهدم صامت كالأموات، لم يترك لي الدهر عضواً سالماً.

# ٢٣

***

اليوم الأول أصعب الأيام، فالمشاعر تتضارب فيه بين الخوف من المستقبل والرجاء بغد أفضل، إنما الشعور بالغربة كان الإحساس الطاغي. أشاع دخولي إلى المستشفى العسكري في أرجاء روحي غربة قاسية كأنها الغربة التي أحاطتني يوم اعتقالي. جردت من كل شيء، حتى اسمي قد خطف مني، كما فعلوا حين اعتقلوني فلم يبق شيء لم تنهبه أيديهم، بما فيها مدخرات احتفظت بها لوالدتي، كي أساعدها في تهيئة مستلزمات أداء فريضة الحج، التي كانت تنوي القيام بها مع آخرين من أبناء مدينتنا. كم تمنيت أن أحقق لها أمنيتها وأقف مع أصدقائي عقيل وسلام وعلِيّ في وداعها كما فعلنا مع الشيخ طالب جليل العصفوري وسيد علِيّ الميالي، إلا أني بالطبع لم أكن أتمنى أن تهاجر مثلهما. الهجرة والهرب من المدينة الصغيرة التي باتت تزخر بعيون الأمن. لم يكن بعيداً عن ذهننا جميعاً، أنا، أمي وأخوتي.

تداولنا الأمر بجدية تامة وقلبنا وجوهه، ثم وقع اختيارنا على مدينة الكاظمية في بغداد كمحل جديد لسكننا. لم يكن اختياراً عشوائياً، بل كان مبنياً على أصول والدتي البغدادية وحيث يقيم والداها واختها وآخرون من أقاربي بينهم أعمامي. لولا عقبة عائلية صغيرة لم نقوَ على تجاوزها لكان أمر رحيلنا عن الشطرة أمراً مقضياً.

تداعى في ذهني المشهد نفسه حين رفعت العصابة لثوان كي تستبدل بعصابة أخرى في ممر الشعبة الخامسة في مديرية الأمن العامة، وبينما طفقوا يكبلوني بقيد في ماسورة طويلة تمتد على طول الممر، قلبت نظري سريعاً في المعتقلين عسى أن أتعرف على أحدٍ منهم دون جدوى. اليوم يتكرر الأمر نفسه، وإن كانت بواصري لا تحجبها عصابة هذه المرة. أنظر في الاتجاهات كلها لعلي أجد شيئاً اتكأ عليه في وحشتي، وأطفأ به توقي لوجه بشري مألوف. كان أملي القانط يرتد إليّ خاسئاً كليلاً، وقد أعياه بحثٌ مضنٍ بلا جدوى. تعبٌ وغثيان من سيارة تنهب الأرض بسرعتها، وفجأة تزعق إطاراتها بصوت مزمجر كأنه هزيم الرعد من كبح فرامل لسبب مجهول. فضاء العربة الضيق يمتلأ بصمت غامض، أسمع صوتاً يشبه الحفيف، كأنه همس من عالم آخر. أشياء

مقيدة تتدافع، تتململ في مكانها، أعادت لي ذكرى أجساد المعتقلين المكبلة يرطم بعضها الآخر. لا محل لحسن النوايا في هذا العالم، فالخبث ساكنٌ دائمٌ فيه كما تسكن أسراب البعوض في مستنقع آسن، حتى أطهر الملائكة أو أكثر المخلوقات سذاجة ما كان له إن يصدق أن هذا لم يكن جزءاً من نهج الإذلال وطرق التعذيب.

ضجّ رأسي بأحلام باطلة كقبض الريح، وبأفكار بلا معالم، قاحلة كأنها رمال صحراء لا متناهية بلا حد، ضربتها ريح عاتية. تزاحمت في ذهني هواجس، صور غائمة، وأخرى صافية كالمرآة تلمع كما البرق، ثم تطمس كأنها نيزكٌ يحترق في غلاف الأرض الجوي. كنت كأنني أجوب مدينة سحرية من غير هدى ضالاً تائهاً حائراً، ما أن أفتح باباً حتى أدخل عالما آخر. أعبر الزمان، وأخترق الأسوار، وأطوي المسافات بلا حاجة لعفريت سليمان ولا للذي عنده علم الكتاب. عطشٌ شديد استبد بي، ولا سبيل حتى لماء حار في جردل أحمر لا يروي كالذي كان في يوم اعتقالي اللاهب. كنت أغترف منه ولا أرتوي، واليوم شفتاي تحلم بملامسة قطرة منه. أين أنت يا أمي لتنزلي عليها قطرات كما كنت ترفقين بوالدي ساعة احتضاره؟

والدي الذي أقعده المرض وأصابه بالعمى وفقد كل موارده المالية بعد أن احترق الفندق الذي كان يديره. في أثناء محاولته الهرب من النيران، بعد أن عجز عن اطفائها سقط من علو شاهق، فأصيب بكسور خطيرة في ظهره، وفقد بصره تدريجياً، وصارت حياتنا بعد هذا الحادث قاسية شديدة. بات ينتظر ما يرسله إليه ابنه الأكبر الذي يعمل معلماً في بغداد عن طريق حوالات بريدية غير منتظمة بسبب خدمة البريد المتخلفة حينذاك. كنت صغير السن ولم أدخر جهداً مع إخواني الذين كانوا طلبة أيضاً لم ينهوا دراستهم الثانوية بعد في توفير لقمة العيش اليومية. حاولنا جميعاً أن نقنع والدي بالذهاب إلى الطبيب دون جدوى، فقد كان يعرف تكاليف المراجعة وفضّل أن يذوب كالشمعة ببطء على أن يرهقنا. جاءت شقيقتي أم عصام وزوجها لتصحبه إلى بغداد وتعرضه على طبيب نصح بإجراء عملية لسحب الماء وكي العين، إلا أنه رفض وفضل أن يفقد بصره كاملاً على أن يشعر بأن أحد ما يتفضل عليه.

في مرضه الأخير أعطاني الطبيب وصفة طبية، قائلاً هذه الحقن غير موجودة في الشطرة، عليك أن تجلبها من الناصرية، ولابد من إحضارها قبل الساعة العاشرة ليلاً.

كـان الوقـت يشـارف علـى الغـروب، وإن حـالفني الحـظ وتمكنـت مـن الحصـول علـى سيارة تقلنـي إلـى الناصـرية فكيـف سـتكون عـودتي منهـا مـع توقـف النقـل العـام؟ انطلقت مباشرة من المرأب في الناصرية إلى بيت عمتي أم محمـد، لأن ولـدها احمـد جاسـم حميـد كـان صـيدلياً. أخبرتـه عـن سـبب مجيئـي فأخـذني إلـى صـيدلية الحكمـة الواقعة قرب بيتهم التي يعمل بها في شارع الحبوبي وفتح أبوابهـا المغلقـة، وأعطـاني الحقـن. رحلـت دون أن أسـدد ثمن الإبر، بل لم أسأله عن سعرها، فقد كنت مذهولاً بين كرمه ولهفته لمساعدتي وبين حيرتي في العودة لوالـدي المسجى في مستشفى الشطرة.

ظللـت أسـير وحيـداً لـيلاً فـي الطريـق المـوحش بـين الناصـرية والشـطرة، بعـد أن تركـت المـرأب خاليـاً مـن كـل عربـة، والظـلام يلـف شـوارع المدينـة الخاليـة مـن الشـبان الـذين هجروهـا إلـى جبهـات القتـال فـي معركـة كنّـا نحقـق الانتصـارات فيهـا بالأناشـيد العسـكرية. أناشـيد كانـت مـادة مسـلية حينمـا اجتمـع مـع صـديقيّ حيـدر وعلِيّ علـى عتبـة الورشة عندما تخلو من الزبائن ونتلاعب بكلماتها بتهكم وسـخرية. لـم تمـر مركبـة إلا ولوحـت لهـا عسـى أن تقلنـي إلـى الشـطرة، ولـم أسـتثن حتـى شـاحنات الحمـل المتجهـة

إلى العاصمة. في آخر المطاف استجابت لتلويحي سيارة دفع رباعي، كان يقودها ضابط قدم لي علبة بيرة لأطفأ بها ظمأي، إلا أني اعتذرت بأني صغير لا أتعاطى المسكرات، والحقيقة إني كنت خائفاً أكثر من كوني لا أتعاطى الكحول. ابتسم لي مشجعاً وهو يسمع عن محاولتي قطع خمسة وأربعين كيلومتراً مشياً كي أبلغ والدي وانقل له ما يحتاج إليه من دواء؛ فكافئني الرجل بأن أوصلني لباب المستشفى.

أخذ والدي الحقنة إلا أنه لم يسترد وعيه، بل بدأ ينادي أشخاصاً، سبقوه في رحلة المبارحة إلى نقطة ما بعد الموت. طلع الفجر في بغداد الغاصة بالبشر والعربات، على محطة القطار حيث وقف ابن عمي، أعمامي وخالتي وآخرون يحجون مهرولين لمرأب النهضة في بغداد. عند العصر عاد شقيقي من جبهة القتال فيما كان شقيقي الآخر يذهب إليها، لينام والدي بعد رحيله مستلقياً على سريره هادئاً بلا وجع ولا آلام، قبل أن ترفعه أكف عمي وأقاربي وجيرة آخرين فوق سيارة تتجه صوب النجف الأشرف ليحظى بنومته الأخيرة في سلام دائم. أما أنا فبقيت أدور تحت سرادق طويل كان عليَّ أن أجهزه في انتظار طوابير المعزين.

## ٢٤

***

الأشجار ترافقنا على جانبي الطريق وتمر سريعاً من زجاج سيارة الإسعاف، تطرح ظلالها المتحركة السريعة نفحات من السكون والطمأنينة، كأنها سحابٌ أبيض تعبث بها ريح في أعالي السماء لا تحجب النور عن أحد، ولا تروع ماشياً أو راكباً من حملها. كنت أتشوق لمعانقتها ولأن أقبل أوراقها كلها، وأن أجمع المتساقط منها في حضني أداعبه وألهو معه. كل ذرة في هذا الكون تعرف سبيلها، ولا تحيد عن فلكها سواء في سعادتها أو شقائها، إلا روحي من فرط وجدها تدور، تملكها الجذب والجنون، ترقص على وقع لحن غير منسجم تعزفه أبواق السيارات، وتعرج سادرة نحو بيت شقيقي، وإلى دار أختي، وفوق مساكن أقاربي في بغداد تسألهم أين أمي؟ أماه، أنا اليوم في بغداد بلا معين. أماه تعالي وكفكفي دموعي من فوق خدي.

طيف أمي لم يفارقني وشعرت بحنين جارف فرحت اناجيها: صباح الخير يا أمي، ما لي أرى الهزال يكاد يقضي عليكِ ووجهكِ بات أصفر شاحباً كورقة خريف. كانت عيناكِ تلمعان كالنجوم، ولكنهما طمستا وغارتا في المحجرين، أهدابك ترتجف كأن الريح تعصف بها وجفناك قد تقرحا. دعيني أمسح الدموع عن خديك اليابسين وإن كنت أعلم أن عينيك قد باتا للوجع منبعاً. هل حصل كل هذا لك يا أماه بسببي وفعلت بنفسك ذلك لأجلي؟ أماه أنا لم إزل صغيرك، لم أكبر بعد، ولم إزل أتشوق للزحف إليك كي تطوقيني بذراعيك الحنونين؛ فأبادلك القبل، لأنك تستقرين في مهوى عميق في قلبي لن يبلغه أي كائن على هذه الأرض مهما أحببته. كنت تنعشيني بضحكاتك، بعناقك. قلبك ارتعش، توجس الشر وأستشعر المصائب، وعلم أن الساعة المشؤومة قد حلت، وأني مسافر إلى نقطة نائية لن تصلها نظراتك ولن تبلغها لمساتك الحانية. نبوءتك لم تكن كسردية عراف، بل هي كوحي الإله حين ربط الرب على قلب أم موسى، وبشرها برده إليها. أماه إن الضباع تدور حولي تريد أن تلتهمني، وتريد أن تطمسني في لجة البئر يا أماه، لكني لست خائفاً. أماه لقد اتخذت من الصبر جلباباً ولم يعد

يهمني ولو توسدت الشوك، لأني علمت بأنه لولا الإياب لما عرف الذهاب، وإن كل سفر ينتهي بالعودة إلى الوطن، وأنت وطني. سوف أعود إليك لأني لن أجد حضناً يأويني ويحميني غيرك.

ظل طيف أمي إلى جواري حتى أفقت على صوت وقوف سيارة الإسعاف؛ ليفتح الباب الخلفي وصعد إليها رجل يحمل سجلاً سألني:

- ما اسمك؟

- ١٩٠.

- أريد اسمك.

- هذا هو اسمي، وهو عنواني أيضاً.

- أريد اسمك.

- سجل ما قلته لك، وانج بنفسك.

جاء مفوض سامي في هذا الأثناء، وصاح به:

- ماذا تفعل هنا؟ ماذا تريد؟

- أريد اسمه لأسجله.

- وماذا قال لك؟

- يقول اسمي ١٩٠.

انهال المفوض على الرجل بالسباب والشتم، فولى منه هارباً والذعر يملأ روحه والاستغراب يطفح على قسمات

وجهه. اندفعت عربة الإسعاف من جديد لتقف في مكان تحيط به الأشجار من كل صوب ينعم بهدوء فاتن. أشجار باسقة تلقي بظلالها على الأرض وتنتشر على أغصانها عصافير ملأت زقزقتها أذنيّ بموسيقى الطبيعة الساحرة. لم أرَ طيراً منذ ثلاث سنين، واليوم أكاد لا أحصيها، كنت كأني أرض جدباء اندفع عليها سيل جارف، فنسيت آلامي كلها لوهلة. نهار مشمس، سماء صافية كالبلور يتلألأ كل شيء فيها. هواء نقي يداعب أنفي، زاد من إحباطي وأسفي، لأنه لم يعد بمقدوري تحسس الأشياء ولا التمييز بينها؛ فكلها باتت واحدة بلا علامات فارقة. فقدت هويتها كما فقدتها، حينما أصبحت مجرد رقم. اندفعت الدموع سخية على وجهي شوقاً للحرية والحياة.

لا يوجد مقام أحسن من الحبس لكي يتبين المرء معنى الحرية ويجد المغزى الحقيقي للحياة. بلى، إنه قوقعة للحزن والشجن ويتغاير في طلعته عن العالم الثاني الذي يحيا فيه الإنسان. لكن ليس لأن جميع المحظورات تستباح فيه، ولا لأن سلطان الأقوياء الحمقى هو السائد، فهذا حال يجري في السجن وخارجه. وليس لأن هدف الجلادين فيه من أرباب وعبيد، وكلهم عبيد، هو إهراق

الكرامات حتى تصبح قصارى آمالهم وأجود بلاغتهم وأرقى فنونهم إهانة الإنسان. ليس لكل هذا، بل لأن الأشياء كلها تلبس براقع تستر بها قبحها وتغطي زيفها في غيره، أما فيه فكل شيء مكشوف معرى مسلوب من كل مكائد التنكر. فيه تمسي رؤية الأشياء واضحة، بل أكثر صراحة من أي مكان آخر، ولا يوجد موقع أفضل منه لمعاينة الذات وتفحص عيوبها ونقائصها. لا يعوز المرء فيه نباهة كبيرة وحذاقة بالغة ليميز الحسن والجمال عن الدمامة والقبح؛ فكلها ظاهرة جلية كما الشمس في رابعة النهار. ولا يحتاج الشيطان للتنكر بزي الأفاعي لكي يغوي الإنسان، بل عليه أن يبرز أنيابه فقط وسوف يخرُّ سجداً له المهزومون الضعفاء يمرغون كل وصايا الرب بتراب قدميه. أما الصادقون مع فطرتهم فسوف ينعمون بالطمأنينة في جو ينضح بالرعب كأنه ثلاجة موتى في قساوة بردها. ورغم كل الأسوار التي تطوقنا مثل قلاع القرون الوسطى المعبأة بالحرس المدجج بالسلاح في أبراجها العالية، إلا أنها لم تكن محصنة بما يكفي لتحول دون فورة الضمائر والعقول. سوف تبقى الأرواح تحلق بعيداً وراء الأفق، وتشق جيوب الظلام؛ لتعاود وظيفتها الخالدة في رسم الأحلام واختراق الحصون المزيفة،

وتقشع كل الحواجز أمام الشمس التي هي قلب المجرة ونور الكون كي تعاود بث ضيائها فيه وصنع الحياة.

# ٢٥

***

ضغط المفوض على زر حاكية مثبتة بجوار باب كبير لونه اسود، يمتد على جانبيه سور دهن بإسمنت أبيض، تعلوه أسلاك شائكة. عرّف عن نفسه، لتنفرج البوابة للسيارة التي تقلني. تم إدخالي في إحدى غرف البيت، التي كانت تحوي شباكاً بثلاث نوافذ، وفيها سريران. أقفل عليَّ بابها الحديدي المصفح، الذي في قسمه الأعلى فتحة صغيرة تشبه تماماً أبواب زنزانات الأمن العامة. استسلمت استسلاماً كاملاً للواقع الجديد وبدأت بالصلاة بلا وضوء ورموش عينيّ تركعان وتسجدان، ولساني الكليل يتلو أذكاراً. أرهقتني الآلام الرهيبة والأوجاع المبرحة، نوبة عصبية فظيعة انبعثت في نفسي فأشعلتها، وما كان ليخمد نارها إلا حنان أمي الرحيب الواسع فسالت دموعي على خدي شوقاً لها.

سوف أنتهي شيئاً فشيئاً بالمهانة والمذلة أمام المرض وتحت عذاب هؤلاء القساة. لا شك أن الأمور ستجري

كذلك، فإذا كان الصخر القاسي تأكله المياه، فكيف لي أن أقاوم بهذا الجسد الواهن قرع هذا العذاب العنيف؟ هل عليَّ أن أقاوم لأحيا، ولِمَ أحيا إن كانت الأمور سوف تجري هكذا؟ كم أتمنى أن أعرف كيف سيكون حالي لو بقيت حياً، هل سأكون مقعداً مذعناً صاغراً أتوسل بالدموع الرائح والغادي، أم سوف أقف مثل النخلة؟

قطع أفكاري طبيب علق باج على صدره كتب عليه "الرائد قاصد احمد نوري". وجه ضوء منظار صغير إلى عينيّ، ثم سألني:

- هل تحس بالألم، هل تشعر بشيء؟
- نعم، ولكن لا أحس بأي مؤثر خارجي.
- قوموا بإطعامه، قال للحرس الأمني الخاص ثم برح المكان.

نقلت إلى ردهة خاصة تابعة إلى مديرية الأمن العامة في مستشفى الرشيد العسكري. وبعد إجراء فحوصات، قرر طبيب برتبة عميد إجراء عملية جراحية كبري في فقرات العنق والنخاع الشوكي. سأله أحد عناصر الأمن عن احتمالات نجاحها، فأجابه الطبيب:

- العملية كبرى من النوع الخطير جداً، ونسبة نجاحها لا تزيد عن الواحد في المائة، وإنها من المحتمل جداً أن

تـؤثر فـي قدرتـه علـى التـنفس، ولا يسـتبعد أن تعـود هـذه الحالة له مرة ثانية في المستقبل.

- متى شرعت هذه الحالة عندك؟ وجه السؤال لي

- في الشهر الخامس أو السادس من هذا العام.

- ونحـن فـي الشـهر الثـاني عشـر! كـل هـذا حصـل بسـببكم، لأنكـم تـأخرتم فـي الإتيـان بـه، لـو جئتم بـه مـن البداية لما صار هـذا. قال ذلـك بغضـب وانزعـاج مصـوباً كلامه لمفوض الأمن.

شـعرت بفـرح ونشـوة وانـا أسـمع توبيخـه لهـم، علـى الـرغم مـن إنـه كـان فـي الحقيقة يقـدم نعيـاً مبكـراً لرحيلـي العاجل المرتقب. خرج الطبيب وجاء الليل بوجبة طعام ساعدني على تناولها الجندي المكلف حامد من أهـالي الديوانيـة. رجـل بجبهـة ضـيقة وصـدغين بـارزين بـروزاً واضحاً، تركت البداوة فيه أثراً بغلظته وجفائه، تميل قامته إلى الطول، أسمر الوجه وبعين واحدة تدور بسرعة، ولا أدري إن كانت كذلك أم لأن الأخرى كانت قد سملت، وبسببها كان يقضي خدمته العسكرية في هذه الردهة. كـان يتحرك بسرعة ويكثر من الالتفات إلى الخلف فجأة كأنه يخشـى مجهـولاً أو أنـه يتصـيد شـيئاً. ولـج بعـدها شـرطي أراد أن يقضـي وقـت فراغـه بالسـخرية مـن الجسـد العـاجز

المشلول. جاء يحمل بيده قيداً يريد أن يكبلني به إلى السرير، احترازاً من محاولة الهرب بحسب زعمه، وهو يعلم يقيناً أني لا أقوى حتى على تحريك رأسي. بدأ يسألني مستفزاً ويخيرني إلى أي جهة أود أن أقيد؟

- أنا مغلول بأمر ربك، ولا طاقة لي على الحركة، والأمر لك.

أعرض عن تقييدي، إلا أنه بدأ استفزازاً آخر.

- ما اسمك؟

- ١٩٠.

- ليس هذا، أريد اسمك الحقيقي.

- اسمي الحقيقي موجود عندك في السجلات، بإمكانك معرفته إن كنت مصراً على معرفته، لأنك رجل أمن. أما أنا فقد أُخبرت ألا أعطي اسماً غير هذا الذي سمعته.

انتهى النقاش العقيم، خرج الشرطي واقفل الباب عليَّ من جديد. بقيت وحيداً في الغرفة أفكر فيما سوف تؤول إليه الأمور. غلبني النوم، فأيقظتني زقزقة العصافير وتغريد البلابل. تساقطت بعض قطرات المطر القليلة، ولكنها كانت كمن يعزف على أوتار قيثارة بموسيقى تشرح القلب وتوقظ الحزن في الوقت عينه. توجهت إلى جهة

النافذة أتطلع إلى الفجر وقد لاح، فأشرق بقلبي وبدد عتمة الظلام، ونثر عبير شوق استباح عيوني بدمعة ألم فاضت كديم غير منقطع. خاطبته برقة وحنان: ما لي أراك أيها الفجر تطل عليَّ مبتسماً وأنيني مقيم ووجعي لا ينصرم. صليت صلاة الصبح برموش عيني، ولم أعر اهتماماً لتلال مجلدات الفقه التي لا تجيز الصلاة من غير وضوء. لم أشعر بقرب الله منيّ في أي لحظة أكثر من تلك، وفيه علمت أن العروج إليه يستلزم طهارة القلب من أدرانه ورفع الكدر عنه؛ فلا يضر الوصول إليه مهما تلطخ الجسد بالأوساخ.

حينما عدت إلى زنزانتي لاحقاً، وكنت متشوقاً للعودة إليها؛ فالزنزانة مهما كانت فهي ملجأ للسجين وتغدو وطناً اضطرارياً له، التقيت بعالم دين قضى عشرين عاماً كاملة في الحبس. هذا الرجل النحيل الطويل بلحيته الكثة لم يكن منخرطاً في أي نشاط سياسي أو حزبي، ومع ذلك تم سجنه لأنه رفض المشاركة في مؤتمر ديني ذي طابع سياسي نظمته السلطة لدعم حربها ضد إيران. المهم ان عالم الدين هذا واسمه السيد محمد مرتضى الطباطبائي من أهالي كربلاء كان يحظى باحترام وتقدير جميع السجناء لدماثة خلقه وشجاعته وصبره، سمع مني

قصة صلاتي لأربعين يوماً وانا عاري الجسد ملطخ بفضلاتي طريح الفراش، لا أقوى على جلوس ولا على قيام. كنت أصلي طيلة تلك الفترة بأجفاني ركوعاً وسجوداً؛ فسألته: ما حكم صلاتي وهل عليّ أعادتها لأنها فاقدة لشروط الطهارة؟ قال لي بصوت منخفض كالهمس، ولكن بحزم، كأن الحياء قد غلبه، وعيناه العسليتان الواسعتان تشعان بالتحدي والأمل: هنيئا لك صلاتك هذه يا بني.

# ٢٦

***

بداية كل يوم كنت أنقل في المستشفى من قسم لآخر لإجراء الفحوصات على كرسي متحرك معصب العينين. أشم عبق نسيم الصباح النقي المحمل برائحة الأشجار والورود فيملأ روحي بالحياة والتفاؤل، إلا أنه في مرة سقطت يدي على عجلة الكرسي. كنت انظر إليها من تحت العصابة، وأرى العجلة تحتك بها، واسمع صوت رجل ينادي:

- ذراعه، انتبه لذراع هذا المسكين، فالعجلة قد أدمت يده.

- اسكت يا رجل قبل أن يسمعوك! ألا تدري أنك تستفز وحشاً ضارياً؟ رددت عليه في سري.

الوقت كان قد فات، إذ التفت أحد الحرس لصاحب الصوت صائحاً به. وسرعان ما أمسك بتلابيبه، وبدأ يحقق معه.

- هل تعرفه؟ ما اسمك؟ ماذا تفعل هنا؟

ظل يدور عليه بأسئلة مرعبة واتهامات مخيفة تنزل عليه مع كم وافر من الشتائم المقذعة، ولولا أنه تيقن أنه مجرد حادث عابر، وأن الرجل لا يعرفني، بل استثاره منظر الجلد المكشوط والدماء، لما أفلته أبداً. بعد هذه الحادثة صرت أنقل على محفة، وفي مرة أثناء نزول أحد السلالم كان بإمكاني أن أرى وجه الشخص الصاعد، وصار بمواجهتي ثلاثة أشخاص يصعدون وكأن أحدهم ابن أختي علي كاظم، فقد كان بديناً مثله وملامحه تشبهه إلى حد بعيد كما تراءى لي حينها. اخذ قلبي يخفق مبتهجاً برؤية وجه يفتح ثغرة في سور غربتي. حينما رأيته تساقطت من أمامي جدران السجن، وانفرجت عن رياض غناء تمتد على الأفق الواسع. تمنيت أن ينظر لي، لكنه لم يفعل، وتملكني في الحال مع هذا الفرح والانشراح خوف في الوقت نفسه، فإن بدر أي شيء يدل على معرفتي به فإن هؤلاء الشبان الثلاثة سوف يضيعون مثلي وتنزلق مصائرهم إلى الجب نفسه الذي ارقد فيه. سوف تكون نظرة قاتلة بالمعنى الحرفي، إلا أني صادقاً لم أتمالك حنيني وتشوقي لرؤية شخص قريب لي أو أعرفه، فما أن تجاوز الشبان المحفة رفعت عيني إلى الوراء

عسى أن ينظر أحدهم لي وأتأكد مما رأيت، لكن عيني التقت بعيون الذي يحمل المحفة فنادى الضابط:

- سيدي، يبدو أن شخصاً ما قد عرفه.

لحسن الحظ لم ينتبه الضابط لنداء الشرطي الذي كان يسير بعيداً متقدماً بمسافة ضاع معها نداء الشرطي في خضم الحركة الحثيثة والضوضاء في رواق المستشفى. فتوجه نحوي وبدأ يسألني بغضب:

- هل عرفتهم؟ تكلم!

- لا، لم اعرف أحداً، وإذا تريد التأكد أحضرهم واسألهم.

بدا أنه اقتنع بالجواب، أو أنه وجد الأمر لا يستحق المزيد من التصعيد. سكت، ومضى الأمر بسلام، ولكن في المرات اللاحقة أخذوا يضعون ملاءة على وجهي كي لا يتعرف أحد عليَّ. كنت أعاني من ضيق في التنفس، ووضع هذه الملاءة كان يضاعف من صعوباتي الموجودة أصلاً. التمستهم أن يعصبوا عيني بدلاً عنها، ولكن إقناعهم كان يشبه تحقيق المستحيل، ولا ينجح في كل مرة. أغلبهم كان يفعل تماماً بالعكس من رغبتي متى علم بها، ويتعمد بذلك إهانتي وإيذائي. تعامل رجال الأمن والمستخدمين العاملين في تلك الردهة كان قاسياً ومذلاً،

تمنيت معه لو إني بقيت في السجن مع نقص المعدات والأدوية، فهناك إخوة لي يتفانون في خدمتي.

طالما حدثت نفسي وأجريت حواراً مع الطبيب منصور لماذا أرسلتني إلى هنا يا رجل؟ لو أنك أبقيتني عندك في طبابة السجن لما تعرضت لهذا الإذلال ولما رأيت هذه الإهانات اليومية. كنت أحس بأني متشرد عظيم وأنا استعرض عدد المرات التي تعرضت فيها للإهانة، كم أوسعوني ضرباً وتمزيقاً وإهانة لا أجد ما يريح هذا الجسد العليل المضنى؟ أنظر لحالي ممزق الثياب، سيئ الهندام كأني مشرد يسأل عن مأوى يستريح فيه من الهجير ولو تحت ظل شجرة من شوك. أغفو لحظات ثم أواصل المسير في ظلمات منامي خائفاً مرتعباً من ظلم أناس فقدوا المشاعر، بل هم وحوش كاسرة بوجوه بشرية. في خضم هذا التفكير المرهق والحديث المتعب مع نفسي، كان صوت من أعماقي يندفع مثل ثورة بركان يكبح جماحي ويشتت خيالي ويقول لي: لا بد أن تعيش، لابد أن تعيش تحدياً لهم وليس حباً في هذه الحياة، ولا في البقاء. يجب أن تعيش.

أخذت يوماً إلى طبيب برتبة عقيد وكان معه في الغرفة أطباء آخرون. تبادلوا حديثاً بينهم باللغة الإنجليزية، ثم أقترب طبيب مني وبيده إبرة وغرزها في جسدي وسألني:

- هل تشعر بشيء؟
- لا.

واصل غرزها في أقدامي ثم أفخاذي ومن ثم انتقل إلى بطني، وهو يواصل السؤال. لم تتغير إجابتي. ثم بدأ يغرزها في بطني بضربات سريعة متتالية، لم أشعر بها. ثم سألني:

- هل تشعر بألم؟
- نعم.
- أين؟
- في العظام.

تابعوا الحديث فيما بينهم، ثم تم تصوير جسدي في قسم الأشعة الملونة بحضور ضابط برتبة لواء كان يدير هذا القسم، وقد وبخ من جديد عناصر الأمن لأنهم تأخروا في نقلي للمستشفى، مما أدخل من جديد السرور إلى نفسي. بعد أيام أجريت لي فحوص أخرى بأجهزة طبية ضخمة ومختلفة كنت أراها لأول مرة في حياتي والأطباء يراقبون من خلال شاشة أمامهم، وفيما كان

الجهاز يتحرك بجسدي يميناً ويساراً كنت أشعر بألم في رقبتي. بعد ثلاثة أيام تم نقلي إلى الطبيب العقيد نفسه، الذي ما أن نظر إلى نتيجة الفحوصات حتى قال بلهجة قاطعة:

- يحتاج إلى عملية جراحية فوراً، صالة العمليات مهيأة والملاك الطبي جاهز، وتبقى موافقتكم الأمنية.

انتابني قلق كبير، فاحتمالات موافقة الأمن عليها بدت في نظري ضئيلة، بعد أن حدد الطبيب العقيد نسبة نجاحها المتدنية. كنت أتمنى أن تجرى العملية بأسرع وقت مهما تكن عاقبتها، فان نجوت فهو المطلوب وأن هلكت فالموت أفضل من البقاء على هذا الحال وكرامتي مهروسة مسحوقة. بعد أربعة أيام سمعت أحد أفراد الأمن يقول للعمال المستخدمين:

- لا تعطوه عشاء، لان عنده عملية يوم غد.

غمرني فرح كبير وفارق التعب والإرهاق عينيّ، وانتظرت الصباح بصبر نافد. توجهت بقلبي ناحية مشاهد النبي والأئمة، ودعوت ربي أن يفعل بي ما هو أصلح لي وهو العالم بحالي. في الصباح فتح الباب ودخل جندي يحمل الإفطار. حسبته لا يعلم فأخبرته بأني في انتظار عملية هذا النهار، فقال: لقد تأجلت ليومين. خبر قاسٍ

نـزل كالصـاعقة علـى رأسـي، أُصـبت بإحبـاط شـديد. يـا للهول، هل عليَّ أن أتحمل ست وجبات طعام أُخرى؟

كنت أكره تناول الطعام، لأنه يجبرني على قضاء حاجة طبيعيـة لا أقـدر علـى فعلهـا، وفـي المقابـل لا أسـتطيع أن أرفض الطعام، لأنه سوف يعدّ إضراباً عن الطعام. دوامة لا أعـرف الخـلاص منهـا، وبسـببها تعرضـت لإذلال كبيـر، كمـا أنـي كنـت بعـد أن تتجمـع الفضـلات أشـعر بثقلهـا بحركة فظيعة في أمعائي أشبه بأمواج بحر هائج. تجمعها كان يسبب لي مغصاً لا أجد وصفاً ملائماً له. لا أعرف هل أنجح في وصفه لو قلت إنه كان مثل جزار يقطع اللحـم بسـاطور، أو إنـه يشـبه وحشـاً ينهشـها بمخالـب جارحة وأنياب حادة.

كنت نائماً في إحدى الليالي واستيقظت على أصوات تشتمني وتسبني.

- ماذا فعلت؟ أسأل باستغراب.

- ألا تعرف ماذا فعلت؟

يقولـون ذلـك والاشـمئزاز بـاد علـى وجـوههم، وأكفهـم تغطي أنـوفهم. علمـت أن فضـلاتي قد طرحـت مني ولـم اشـعر بـذلك أبـداً. حملـوني عاريـاً إلـى الحديقـة. مـا زلـت أذكر، أنه كان اليوم الثامن من الشـهر الأول. بـدأ الجنـدي

الأعور حامد يرشني بالماء، فانتبه آخر إلى أنه ماء بارد، إلا أنه استمر يرش الماء بحجة عدم توفر الماء الحار. كان يريد الانتقام مني وإذلالي، إلا أني لحسن الحظ كنت فاقد الإحساس بأي مؤثر خارجي، كما إن أمعائي قد أفرغت حمولتها فتخلصت من عذابها مؤقتاً.

# ٢٧

***

بعد يومين أحضروا حلاقاً عسكرياً ليزيل كل شعرة من جسمي استعداداً لإجراء العملية، وأثناء أداء عمله كانت نظرات ممتعضة تلاحقه من أفراد الأمن لا ينفكون عن سؤاله في أكثر الأوقات، وإياي أحياناً بشكل مستفز بحثاً عن أي رابط يجمعنا، مع أنه كان من اختيارهم. لم يظهر عليَّ أو عليه ما يوحي بأنه سبق أن التقينا في مكان أو زمان ما، إلا أنهم كانوا في غاية الحرص لحد المبالغة في ألا يتعرف عليَّ أحد. وابل الأسئلة الذي انهمر عليه جعله يرتبك في عمله، وصار متردداً بين إنفاذ مهمته بالشكل المطلوب والعجلة في إنهائها للخلاص من هذا الجحيم الذي لم يكن بحسبانه؛ فارتكب بعض الأخطاء التي ضاعفت من زخات اللوم والتقريع مما زاد في ارتباكه. أحسست بشفقة كبيرة عليه، وتساءلت هل أصبحت مصدر رعب وخطر لكل من تعلق بي ولو بشعرة واهية، وإذا كان الأمر كذلك فما حال أسرتي الآن؟ والسؤال

الأكبر ألهذا الحد أشكل قلقاً للسلطة التي تصور على أنها مثل ديناصور مفترس؟ وأي قوة مرعبة يزعم أنها تملك كل هذه السطوة وتخاف مني؟ لو لم تكن حكاية قوتها مثل وهم "الطنطل" و"السعلوة" اللذين كنّا نُخوف بهما؛ لما خافت مني وأنا الذي لا أملك إلا بقايا نفس يكاد ينقطع في أي لحظة. الخوف سيف ماض نسلطه على أرواحنا لننصر عدونا، وهو أكثر فعالية من كل أسلحته، ولو ركناه جانباً لما كان لجبروت السلطة الغاشمة من وجود إلا كحكايات الجن في تخاريف الجهلة أو في كتب تسلية الأطفال.

هم مثل أي مجرم ومذنب يشعر بالخوف من كشف فعلته فيحاول أن يسترها ويخفيها عن الآخرين، ولكنه لفرط ما يشعر به من خوف يبالغ في التستر فيبدو بأفعاله ساذجاً غبياً يحاول الاطمئنان على أنه لم يترك دليلاً يقود إليه، فيفضح نفسه ويقدم برهاناً قاطعاً على إمعانه في الإجرام على جريمته، وعندما يحاول إخفاء فعلته فإنما هو بالحقيقة يثير اهتمام الآخرين ويدلهم على محل جريمته. أو أنهم بهذه الأفعال يكشفون عن قلق يقض مضاجعهم وريبة تساورهم من كل الناس يعكس درجة الازدراء والنفور منهم. فقدوا الثقة بكل الناس وباتوا

يقفون على صخرة في بحر هائل يخشون من أي حركة تضرب موجه لأنهم يظنون أنها سوف تغمرهم بثورتها وتجرهم إلى أعماق سحيقة ودرك أسفل حيث تسكن مهملات التأريخ الغارقة.

منعت من تناول وجبة العشاء وشرب الماء استعداداً لإجراء العملية، وظللت ساهراً أفكر في والدتي التي لم تغب عن بالي يوماً طيلة الفترة الماضية، بل حضرت بكثافة في أيام مرضي الأخيرة. أحدثها وأطلب منها مسامحتي عن كل ألم سببته لها ومعاناة ضاعفت مرضها، وزادت من آلامها وعسرت محنتها أكثر مما هي عسرة. مرّ عليَّ طيف إخوتي وأخواتي واحداً واحداً، فإنها ليلة وأي ليلة، إنها ليلة الوداع ولا عشاء أخير سوى استعادة ذكريات الألم. ربما غداً أصلب على طاولة العمليات، فإن مت، هل سيسلمون جثتي إلى أهلي؟ وكيف سيكون وقع الخبر على والدتي ولم يمض على رحيل والدي قبل اعتقالي إلا ثمانية أشهر؟ هل إن العملية ستنجح وأخرج امشي من صالة العمليات؟ دفق من الأفكار انتابني، ولم يوقفه إلا سيل آخر أطلقت له العنان من عيوني، عاطفة تغرقني كموجة غامرة ملأت قلبي رقة وحناناً تبحر بسفن الشوق ومراكب الوجد إلى أمي. لم أحاول مقاومتها

فانبجست من عيني الدموع وظلت معلقة بأهدابي حتى استسلمت لنوم لا إرادي.

لا أدري كم مرّ عليَّ قبل أن تلتقط أذناي حفيف أجنحة عصافير وبلابل تعلن بزوغ الأمل مع شعاع شمس غمر الأرض وبدّد الظلام لتدب الحياة. نهار جديد يعني ميلاداً جديداً وبعثاً بعد موت، وإن كان مقدراً لي أن أموت، فموتي الحقيقي هو إضاعة الأمل. الظلام ليس غروب الشمس، بل ظلام الحياة عندما ينطفأ الأمل، وبعدها هي والعدم سواء، ولن أكون سوى جسد يحبو في الأرض على غير هدى. بقيت في سكوني متيقظاً انتظر متى يأتون لأخذي إلى العملية، ثم سمعت صوتاً كأنه لسعة سوط إلا أني كنت مشتاقاً لسماعه وهو ينادي: افتح غرفة ٢. كأنما قال افتح باب الحياة من جديد، فالأمل هو الحياة وفقدانه هو الموت. أخيراً ستنتهي المعاناة، فما أسوأ الحياة حينما يكون المرء عبئاً على محيطه وعلى أقرب الناس له.

كان الملاك الطبي متواجداً بكامله ومستعداً وأخذوا المحفة يريدون إدخالها إلى صالة العمليات التي كتب عليها بخط واضح وكبير صالة العمليات الكبرى، وإذا بأحد عناصر الأمن يعترض الطريق قائلاً: لا يدخل إلا

وانا معه. حاول الأطباء أن يقنعوه بمحاولة تخويفه من صعوبة رؤية الأحشاء المفتوحة، بأن الأمر غير مريح له، فأجابهم: بأنه قد رأى أكثر من هذا ولا خوف عليه من منظر الدماء. لم ينه الجدل العقيم سوى وصول العميد الطبيب الذي طلب من عنصر الأمن أن يكسو نفسه برداء مثل زي الطاقم الطبي، قائلاً له: ادخل ودعهم يمارسون عملهم، ولا تتدخل فيه أبداً. آلمني الموقف للغاية؛ فرجل لا يملك تعليماً أساسياً يفرض رغبته على أطباء متمرسين وليس باليد من حيلة لصده.

نفذ صبر طبيب التخدير وهو يحاول أن يجد منفذاً في إحدى ذراعيّ، ثم قال لي بعد أن نجح في أداء مهمته إذا شعرت بالنعاس أخبرني. كنت قد صممت ألا أخبره، لأني خشيت ساعتها من أن ينفد مفعول المخدر وأنا في خضم العملية. نعم كان هاجساً مضحكاً، ولكنه كان ينم عن عدم ثقتي وخشيتي من إهمالهم، مع أني لم أكن محقاً إذ لم أفق إلا وشيء يطوق رقبتي فسألتهم: هل انتهيتم؟ فجاء شخص وطلب مني أن أحرك رجلي، حاولت، ولكن لم تتحرك ثم قال لي حرك أصبعك الكبير، ولكنه الآخر ظل عصياً لا يسمع ندائي وتوسلاتي له. فقلت متنهداً بلحن الشكوى والإحباط: الحمد لله

والشكر. أعادوني إلى الغرفة من جديد ومنع عني الماء. تذكرت رحمن حسين جلود وتوسلاته وصرت مثله اطلب الماء دون جدوى. بعد وقت لا أعرف كم مضى منه جاء طبيب وفحصني، ثم كتب وصفة دواء تقدم لي حينما يقدم لي الطعام في كل وجبة، إلا أنهم تجاهلوا الأمر في بعض الوجبات، بل أنه في اليوم التالي وكان يوم جمعة جاء بعد وجبة الإفطار أحد عناصر الأمن وسألني:

- هل هناك دواء مقرر عليك تناوله؟

- نعم.

- اليوم جمعة وهو يوم عطلة فلا يوجد علاج. أجابني باستهزاء وسخرية وخرج يقهقه.

العملية فشلت ولم أزل حياً، فكيف سأمضي حياتي لو بقيت في هذه الردهة على هذا الحال بين هؤلاء الأوباش المجردين من الرحمة؟ لم أكن سيء الظن، بهم ففي أحد الأيام اتهموا مريضاً يرقد في غرفة أخرى بأنه يحاول الهرب لأنهم وجدوا الشبكة التي تغطي النافذة لمنع دخول الحشرات ممزقة قليلاً. جاءوا مع كلاب بوليسية كانوا ينادونها (لوس وماريا). صوت نباح الكلاب يختلط مع صراخ المريض وضابط يتوعده في كل دقيقة، ويتهمه

بمحاولة الهرب في تحقيق مرعب لا مثيل له استمر لما يقارب الساعة، مع أن هذه الشبكة لو أزيلت بأكملها فلن يستطيع الرجل إن يخرج حتى قدمه منه، وفوق ذلك كله أنه كان عاجزاً عن النهوض. لم يكن ينفع معهم إلا أن يموت المرء ليتخلص من شرورهم أو أن يكون مجنوناً.

في حالة كالتي عشتها في المستشفى لم أكن استغرب أبداً إن أي مريض يقضي زمناً طويلاً بين هؤلاء أن يبلغ حافة الجنون. عندما يبلغ المرض بالمرء أوجه وهو يقيم بين وحوش آدمية تجد في عذاب الآخرين متعة لها وسلوى يخامره ساعتها شعور بأنه في تيه، وقد بلغ آخر الممر، وبداية العدم، وأن الجنون هو سبيل الخروج الوحيد من وطأة خناق حياة تركت في عقله وروحه شظايا الحقد والبغض ولم يلمس منها ولو قليلًا من الحب. الجنون طريق آمن، كأنه جسر معزول فوق نهر الحياة أو قطعة من عمر الزمن يُحْتمَى به من جنون الدنيا.

كان أحد المرضى مجنوناً بامتياز ويقذع عليهم بألفاظ فاحشة بذيئة، ولا يملكون من سبيل لردعه إلا بمجاراته أو محاولة الاستهزاء به لقلب الطاولة عليه فكان الضابط يقف أمام غرفته ويخاطبه من كوة الباب الصغيرة.

- من هؤلاء الذين تشتمهم، هل أهلك، أم أصدقاءك؟

- لا، لا، أني أقصدك أنت وجماعتك.

كان المسكين يصرخ طوال الوقت ويرسل إلى السماء المحجوبة عنه جملاً معقدة وتضرعات متعالية على التفسير بقواميس من يدعون انهم عقلاء، يعكس فيها وقع معاركه المحتدمة. يسرد بذاكرةٍ ثاقبة ذكرى وقائع مثيرة وأحداث لم تكن عابرة، وخيبات طفولته النائية، ويطرز أوجاعه بطريقةٍ ساخرة. كانت السخرية التي يخترعها بابتداع أوضاع مضحكة جداً تداعيات قرار في لحظة عتق وانفلات من عمر زمن مجهول، بعد أن تقلص عنده فضاء الأمنيات، واختلطت أحلامه بواقع متشتت في ضبابية، وتراكمات شعور خانق بأنه يقضي حياته في نهر حياة يومية تافهة. يبدو أنه اكتشف بعد جهدٍ مضنٍ وتيهٍ طويل، أن لا سبيل مفضٍ للفرار من نير جنون الدنيا وكآبة الزمن إلا بالجنون نفسه. فاختاره ليضحك ملء شدقيه هو ومن يعيش المرارة، كي ينجو من كآبته ويفسح الطريق لغيره للفرار من مكابدة الدنيا وشقائها. قرار استجلاب الوهم الغامر في تلك اللحظة الحرجة التي أحسَّ فيها بالضياع، والخسارة، والغربة، والحصيلة المرعبة التي آلتْ إليها حاله، حل أنسب للإفلات من الزمن الوعر الممتد بلا نهايات، وللعيش في غيبوبةٍ لذيذة كفيلة بخلع

أثواب الرزانة المصطنعة والمهابة الفارغة بعيداً عن الواقع الفاضح وتشوهاته.

# ٢٨

***

من العسير عليَّ بمكان أن أصور مشاعر أمرئٍ ينقلب إلى مجرد بدن معرى بالكامل، سليب الإرادة ملقى على تخت في غرفة مؤصدة بأشد الأقفال، عاجز عن القيام بأي وظيفة، وما من أحد ينصت لشكواه ولا يأبه لأوجاعه وآلامه. لا يحيط به إلا رعاع سفلة، أَراذل لا يهمهم أمر أحد من الناس، لا يرضون سوى غرائزهم، ولا همَّ لهم غير متعهم الشخصية، تسليتهم ولهوهم وغاية مرحهم عذابات الآخرين. كانت أغلى أمنياتي وأبعد رغباتي أن أستر عورتي، وألّا أبقى مكشوفاً أمام أبصارهم المستهزئة وكلماتهم القاسية الجارحة. كنت أتوسل بحامد الأعور أن يراعي حالتي، إنما كان للصخر أن يستجيب لتضرعاتي قبل أن يردّ عليّ بحرف واحد. في نهاية المطاف لم أجد بداً من عقد صفقة معه، أن يؤكلني خمس ملاعق فقط وينصرف عني مقابل أن يستر جسدي

ببطانية، وإن تعرضت لاستفهام من أحد عن علة عزوفي عن الطعام أقول لقد شبعت.

كانوا يستفزونني باتهامي بالكذب وادعاء المرض، ولم أعرف حتى سبيلاً للرد عليهم. كنت بحاجة للرعاية على مدار الساعة، ولم أكن أحظَ بأدنى شيء منها. كنت أتمنى لو أني أعطى قليلاً من العناية التي تحظى بها الكلاب البوليسية لوس وماريا. ترويح وترفيه وتسلية وفاخر الطعام من شرائح اللحم والحليب الطازج، وهي حاجات حظرت عليَّ لسنوات طويلة حتى بعد أن استرددت بعضاً من عافيتي. بلغ بيّ الضجر والسأم حداً صرت لا أجد وسيلة للترويح عن نفسي غير تكرار توجيه اللوم والعتاب للطبيب منصور، ولماذا لم يدعني أموت؟ الموت هناك بين رفاقي والرحيل عن هذه الدنيا خير لي بمليون مرة من هذه الذلة والمهانة.

جسدي الخدر يدب فيه، وأنا مسجى على ظهري فوق سرير يعاني من الإهمال، كأني كنت أنام في تابوت تكرر استعماله، أو أني أرقد في قبر. لا أغالي حينما أقول إن هاجس الموت كان يحوم فوق رأسي مثل الطيور فوق بقايا البشر في الحروب. هل كنت أتمناه وأرغب فيه؟ نعم في كثير من تلك اللحظات العصيبة كان يستفزني تأخره،

مـع أنـي كنـت أردعـه بكبريـاء يعصـف فـي داخلـي يـزيح الأوجـاع كلهـا. كـان الكبريـاء يسـمق فـي داخلـي فجـأة كشجرة أرز تقـف في وجـه عاصفة، لكـن مـع ذلـك فـإن هاجس الموت لم يبارحني، لأنـه كـان يغريني بالراحـة مـن العذاب ونهاية الألـم. لـيس يسيراً بالمرة أن يكـون المـرء مشلولاً عاجزاً عن أي حركة ملقى على سرير وحيداً ليس معه قريب من أهله ولا رفيق، يمر عليه الوقت ثقيلاً أثقل مـن صـخور الـدنيا كلهـا، وهـو يرقـد تحتهـا بـلا حـراك فـي حالـة مـن الخمـود، بـل الجمـود ولا يـدري مـا المصـير المخبـوء لـه، والضـباع البشـرية تـدور حولـه. الاضـطجاع مكـبلاً بـلا قيـود علـى سـرير المـرض لهـو كـالجلوس فـي مطمـورة لا يـدخل لهـا بصـيص ضـوء. كنـت كيوسـف فـي غيابة الجب أدور في العتمة والمستقبل المجهول وانتظر حبلاً من سيارة تخرجني من العتمة إلى العبودية.

كنت أقاسي في بعض المواقف من التعرض للسخرية والإذلال بشـكل يـومي، فمـثلاً كنـت أتبـول عـن طريـق ماسـورة دقيقـة أدخلـت فـي الإحليـل لمـدة شـهرين وثلاثـة عشر يوماً بالتمام والكمال، وكـان يفترض حسب توصية الأطبـاء أن يـتم تنظيفـي وتطهيـري مـرة علـى الأقـل يومياً. عنـدما يبـدأ نائـب ضـابط "هـواد" بتنظيـف جسـدي، كنـت

أشعر كأنما الخدر يتحرك في جسمي وتبدأ أعضائي تتحرك بشكل مفاجئ كأنها تصاب بصعقة كهربائية، ويغشى بصري مشهد أنوار بيضاء صغيرة تتراقص في الهواء. عندما يرى "هواد" الارتعاش في أعضائي يبدأ بسبي وشتمي، وهو يشير لمحل بولي ويسخر مني بكلمات فاحشة لم أسمع بها طيلة حياتي، وينزل بي من السباب أقذعه. كلماته كانت كأنها رصاص ذائب من شدة السخونة يصب في أذني، وهو يفعل هذا بتلقائية وكثافة يومياً كأنه واجب مكلف به.

معاناتي الأشد كانت مع الفضلات، لأنها كانت معركة حقيقية عندما تنوي مغادرة أمعائي ولا تجد منفذاً. تحدث اضطراباً داخلياً في جسدي كأنها إعصارٌ لا منجى ولا ملجأ من غضبه، وفي شدة اهتياجه كأنه يضرب بحراً فتضطرب أمواجه لتزبد وتزمجر هائجة كالجبال، وتحيل كل مركب يقف في طريقها إلى أشلاء ممزّقة تقاذفها رياح عاتية في كلّ الاتجاهات. أتلوى من الألم وتستمر مكابدتي لهذا الوجع ساعتين أو حتى ثلاث، ثم بعدها أشعر بسكون في أحشائي وخمود الوجع، ولكن تبدأ المعضلة الجديدة الأكبر، إذ أني أصبح مرمى لسهام شتائمهم ومصباً للعناتهم، لأن أمعائي قد أفرغت قليلاً

من محتوياتها. لم أكن أشعر بما يخرج مني ولا أقوى على منعه أو السيطرة عليه فهو أمر خارج إرادتي بالكامل، بل لم أكن حتى أشم شيئاً من رائحة البراز، ويثير استغرابي، بل يفاجئني منظرهم وهم يدخلون بكمامات تغطي وجوههم، يقذفون عليَّ وابلاً من الوعيد والتهديد بالويل والثبور إن فعلتها ثانية. ما كان يضاعف هذا العذاب المر في خروج الفضلات ويزيد من منسوب وجعه وشدة ألمه هو غلظتهم وفظاظتهم في التعامل معي إثر كل مرة اطرح فيها شيئاً من بقايا الطعام، حتى بتّ أفضل أن لا أكل شيئاً على هذه المكابدة والمعاناة.

لم أشعر بالهزيمة والقهر بأبعد معانيها طيلة مكوثي في المعتقل أو السجن ولا حتى من المرض نفسه، ولكن في تلك الأربعين يوماً التي قضيتها في مستشفى الرشيد العسكري في الردهة الخاصة الثانية التابعة لمديرية الأمن العامة شعرت لمرات عديدة بأني مغلوب مهزوم بشكل مطلق، وأن بقائي في هذه الحياة لم يعد له معنى، لأني لا أعدل حتى حياة حشرة تافهة، بل وأدنى من قيمة بعوضة. يتم التلاعب بيّ كأني دمية لا أملك حساً ولا شعوراً، وفي الحقيقة هم من أطلق عليَّ هذا التعبير. ففي يوم سأل موظف الأشعة

- من هذا؟

- "الأمن العامة"، رد عليه النائب ضابط حسين.

- إنه لعبة أطفال ضعوه كيفما شئتم! وجه كلامه لطاقم الأشعة.

لم أكن أملك غير تجرع الإهانات بمضض ولا أقوى على الاحتجاج والاعتراض، ولا حتى إبداء عدم الرضا بتجهم وتقطيب وجه ولا تكشيرة، فإن أي واحدة منها كان كفيلاً بمضاعفة ازدرائي واحتقاري.

## ٢٩

***

بعد مرور أكثر من عشرة أيام على إجراء العملية وبينما أنا أفكر في حالي والمعاناة التي لا تنتهي، لمحت حركة طفيفة في إصبع قدمي اليمنى الكبير. لم أصدق عيني وخلته وهماً، ولكن رغبتي العارمة في استرداد عافيتي والخلاص من هذا العذاب المقيم في ردهة الأمن العامة في مستشفى الرشيد العسكري حفزتني لمحاولة تحريكه رغم أني كنت محبطاً بالكامل وقد بلغت قاع اليأس. مفاجأة! انه يتجاوب مع الإيعاز. حاولت أن أفعل الشيء نفسه مع بقية الأصابع إلا أنها تمردت عليَّ وباءت كل محاولاتي بالفشل الذريع وانتهت بدون جدوى. استسلمت لواقعي المر وتلحفت بالإحباط وتوسدت اليأس من جديد، وخلدت إلى النوم.

محاولتي الخائبة لم تفت في عضدي أكثر من سويعات قليلة؛ فكررت المحاولة في اليوم التالي. هذه المرة تحركت أصابع القدم اليمنى ثم اليسرى؛ فاستبد بيّ

الطمع في تحريك قدمي وساقي، إنما الخوف كان يحجز شهوتي خشية ألا ترجع إلى سابق محلها فيشتد ألمي. ومثل لص يتسلل بدأت أسحبها بهدوء وبمقدار حذر كأنما أخشى أن تنبه لوقاحتي. لم أصدق ما يجري إن أقفالها تستجيب والصدأ يوشك أن ينجلي. زادت جرأتي وتماديت على الساق الثانية فاستجابت هي الأخرى. أرجعتهما إلى محليهما فرجعتا. ما هذا الذي يجري؟ هل استعدت السيطرة وأمسكت بالزمام من جديد؟ هل سوف أتخلص من حامد الأعور وهواد ولا أعود بحاجة لهما؟ هل انتصرت في المعركة وانتهت محنة المستشفى العسكري، وبدأت رحلة العودة إلى رفاق الزنزانة وإخوة المحنة؟

طارت روحي فرحاً، وأخذت اسحب ساقيّ للأعلى وأمدهما للأسفل بحركات سريعة متتالية كخفق جناحي طائر صاعد إلى السماء، أو كأنها ترقص على أنغام موسيقى عذبة يعزفها عود ساحر أو تخرج من ناي ترقص له القلوب. رقصت بهما حتى سقطت معهما عن السرير، وطيلة الوقت كنت أطلق صيحات الفرح والابتهاج. دخل رجال الأمن على وقع صيحاتي، وحينما وجدوني ساقطاً على الأرض أرجعوني على السرير، وشرحت لهم بإيجاز

تطور الحالة؛ فرجع أحدهم مع طبيب عاين حالي وأجرى فحصاً سريعاً وطلب منهم أن يحركوا يدي من المفصل حتى لا تصاب بالتكلس، إلا أن نصائحه الطبية كانت تذهب أدراج الرياح، فقد جاء مرة "هواد" ليلاً لأداء واجبه المناط به لتحريك يدي. وما أن شرع بذلك ولم تمض حتى دقيقة واحدة وإذا بصوت أحد عناصر الأمن يناديه:

- "هواد" لقد بدأ فلم السهرة العربي، أتركه وتعال!

وهكذا انتهى العلاج الطبيعي إلى الأبد، وبالفعل أصاب يدي تكلس نتيجة هذا الإهمال المتعمد، ولم أستطع استرداد ذراعي ليومنا هذا.

بعد هذا التطور اللافت، وبعد معاناة قاسية لاقيتها في مستشفى الرشيد العسكري بدأت رحلة العودة سريعاً من جديد إلى سجن أبي غريب. في اللحظة الأولى التي وصلت بها للعيادة الطبية في سجن أبي غريب وجدت الطبيب منصور في استقبالي يربت عليَّ ويردد بصورة مكررة: أنت بطل، أنت بطل لتحملك هذا الوضع. حدس بخبرته حجم المصاعب التي تحملتها ومشقة البقاء في المستشفى العسكري.

اضطجعت على محفة في سيارة الإسعاف في رحلة العودة بمشاعر تختلف عن رحلة الذهاب. أنصب تفكيري هذه المرة فيمن سوف أجده في عيادة السجن الطبية؟ ترى كيف ستكون انفعالاتهم وهم يرونني قد عدت إليهم؟ هل أعرفهم ويعرفونني، وهل في الأصل سوف التقي سجناء سبق أن شاطرتهم زنزانة؟ وإذا لم أكن أعرفهم فكيف لي أن أخبرهم بأني لا أمتلك الاستطاعة على إخراج الفضلات من جسدي؟ فقد كان المرض كله في كفة ومعاناة خروج الفضلات في كفة أخرى. كنت لم أزل متحاملاً على الطبيب منصور، وتوعدته في سري بأن أصب عليه جام غضبي. سوف أؤنبه على جهاده من اجل إرسالي إلى مستشفى الرشيد، ومكافحته على ألا أموت في السجن، بل وضعني في مواجهة قسوة وحشية لا طاقة ولا عهد لي بها طيلة هذه الأربعين يوماً. هيأت كلماتي واستجمعت شجاعتي كلها حتى انهال عليه ما أن أراه، إلا أنه ما أن توقفت عربة الإسعاف وفتح بابها الخلفي، وإذا بعيني تلتقط وجه الطبيب منصور واقفاً يكاد الفرح ينفجر من عروق وجهه. يتحرك هنا وهناك ليتأكد من أمان رقودي على محفة نقل المرضى، ويكرر السؤال هل أحكمت ربطه؟ كان يخشى سقوطي منها كونها بعجلتين

فقط، ولكنه كان قلقاً وهو يركض بجوار المحفة ودموعه تسابقه كأنه أم تساير ابنها. تشتت شجاعتي كلها وتبخرت كلمات اللوم والعتب التي دبجتها لساعات في انتظار لقائه. مسحها بدموعه ومشاعره الفياضة، وأجهز عليها تماماً هو يضعني على فراش في الردهة وينحني عليَّ مقبلاً إياي من جبهتي وهو يردد من الفرح وكأنه ظفر بجائزة كبيرة: أنت بطل، أنت بطل.

- قل لي يا بطل ماذا تحتاج؟ سألني برقة وحنان وبعاطفة جياشة

- لا أسيطر على نفسي، ولا اشعر بالفضلات عندما تخرج.

- كل شيء سهل، ويمكن حله. لا تهتم.

التفت إلى الموجودين من المرضى في الردهة وطلب متبرعاً لمساعدتي، فتبرع شاب أسمر ضعيف البنية قصير القامة من أهل كربلاء كان يقضي محكومية بالسجن المؤبد مع شقيقين له يدعى "حسين دعيبش"، ولحقه آخرون في تناوب على تقديم العون لي، منهم سمير يوسف وحسن حميد، وزمان الكربلائي، وغيرهم فقدت ذاكرتي الطريق إلى أسماءهم. بدأ يعود لي الشعور بالحاجة تدريجياً، فأطلب منهم أن يحضروا مقعداً صغيراً

شبيه بمقعد تدرب الأطفال على قضاء الحاجة ويضعونه تحتي لقضائها. ما كان يسبب لي الإحراج كثيراً هو عجزي عن تنظيف نفسي وكنت أكتم الألم مستسلماً لأمر فوق طاقتي، أتجرع مرارته بحزن وحرج كبيرين. كتمان الألم فرض عليَّ تحمل مشقته في طريق التعافي، وكان عليَّ أن أقطعه حتى آخره، ولكن رغم إني كنت أقوم بذلك بصورة مطردة يومياً إلا أني لم اعتد عليه مطلقاً. لأنه لم يكن يوجعني بثقل وطأته وحسب، بل سرق مني الأمان والنوم وزجّني في دوّامة من التخبّط والفوضى والاضطراب. طبع الألم بصمة من الحزن والهم في أعماقي وصلت إلى نسبة عالية، لم أعد معها أقدر حتى على البكاء، بل كان عليَّ أن أكتمه فقط في داخلي أكتوي بناره وألتاع من حرقته.

أغدق عليَّ الطبيب منصور بما توفر عنده من العقاقير خصوصاً المقويات بشكل يومي، وكانت أولى العلامات المشجعة أني استعدت قابليتي على التبول وتخلصت من الأنبوب الذي كان في داخل الإحليل. شرع الشلل ينحسر تدريجياً كما بدأ. بدأت الحياة تعود إلى أطرافي السفلى ويتصاعد إحساسي بسائر أعضائي، إلا أن المشكلة كانت في أطرافي العليا. اقترح الطبيب على

السجناء الموجودين في الردهة جدولاً للقيام بعلاج طبيعي لذراعيّ، بتحريك المفاصل والأصابع والرسغين. تولى المهمة سمير يوسف وهو شاب مصاب بعجز كلوي من مدينة بلد الواقعة شمال بغداد، ولها حكاية مؤلمة لا يفي حقيقة ما جرى فيها إلا تعبير الإبادة الجماعية، فقد سيق إلى معسكرات اعتقال في الصحراء جنوب العراق قسم كبير من سكانها بلا تمييز بين النساء والرجال والأطفال، وقتل أغلبهم بإعدامات جماعية، ولم ينج من همجية السلطة حتى بساتين المدينة الصغيرة الغافية على شواطئ دجلة؛ إذ جرفت بطريقة منهجية ومنع أهالي المدينة من المتبقين وأغلبهم من الفلاحين من ممارسة مهنتهم لسنوات طويلة.

كان سمير يقوم بتحريك مفاصلي بينما الآخرون تنحصر مهمتهم في أغلب الأحيان بالسيطرة على ساقيّ، لأني كنت أشعر بألم هائل. أصرخ بهم أن يتركوني وأحاول جاهداً التخلص منهم، كأننا لسنا في علاج طبيعي ومساعدة يحاولون تقديمها لي، بل كأننا في منازلة يسعى كل منّا للفوز على خصمه بأي حيلة يتمكن منها. الإهمال المتعمد من عناصر الأمن في مستشفى الرشيد لهذا العلاج لمدة أربعين يوماً سبب لي تكلساً وورماً

كبيراً، حتى أني اضطررت لوضع ما يشبه الوسادة تحت كل ذراع. منظر مرعب لذراعيّ بدا معه كأنهما ساقان لمصاب بداء الفيل بعث فيّ خوفاً وقلقاً، وظننت حينها أنهما سوف يظلان على هذا الحال طيلة عمري. لم يبدد قلقي سوى الطبيب منصور، الذي أمر بإيقاف العلاج الطبيعي لأن لا فائدة ترجى منه وأكّد لي ان الورم سوف يزول تدريجياً، ولكن الحركة تحتاج إلى عملية جراحية مستقبلاً في مستشفى متخصص، وهو أمر لم يتح لي بلوغه أبداً، وبقيت أشكو من عجز وعوق في ذراعي، وضمور عضلات مزمن لا سبيل لعلاجه، ولا أستطيع الاستحمام منفرداً رغم أني أصبحت قادراً على استخدام ذراع واحدة في الأكل وقضاء بعض الحاجات.

# ٣٠

***

كان للزمن فعله فقد بدأ مركب استرداد العافية يبحر في عالمي من جديد؛ إذ تم رفع أنبوب التبول مني، وفاءت لي خاصية التبول بصورة طبيعية من جديد. حفز هذا التطور كثرة المقويات التي كنت أتلقاها على شكل حقن يتولى زرقها بمواعيد منتظمة شاب يدعى حسن حميد ينحدر من مدينة الثورة في بغداد كرس جل وقته لخدمتي، ولسوء الحظ تم إعدام هذا الشاب بعد سنوات بوشاية كاذبة. بدأت أجرب المشي وكانت مهمة ليست يسيرة بالمطلق، إذ أني كنت أشبه بطفل يدخل عهد الفطام. الوقوف على قدميّ وترك الزحف لم يكن ليتم لولا مساعدة كبيرة استنزفت وقتاً كثيراً وجهداً كبيراً من صديق أسمر طويل يتحلى بالصبر والهدوء اسمه زمان من مدينة كربلاء. حجم ما رأيته من تعاطف هذا الشاب ومن غيره ممن مرّ بتلك الردهة وسعيهم الدؤوب لتقديم

المساعدة لي في كل مناسبة كان يرسخ القناعة عندي بأن الموت بين هؤلاء الشرفاء خير من العافية بين البرابرة.

كان وضعي الصحي يتابع التحسن مع اقتراب شهر رمضان؛ فتمادت رغبتي بصيامه، إلا أنها كانت ترتطم برفض قوي من الطبيب منصور. بدا له لاحقاً نتيجة لجاجتي أن الصوم عامل نفسي سوف يرفع من معنوياتي فسمح لي بذلك. لم يكن قبوله مطلقاً، بل اشترط عليَّ شرب الماء بكثرة بعد الفطور وتناول ثلاث أو أربع وجبات ما بين موعدي الإفطار والإمساك، والتوقف عن الصوم مع أول انتكاسة. التزمت حرفياً بتوصياته وتجاوزت صيام الشهر دون مضاعفات. لم تكن معنوياتي العالية ولا رغبة التحدي التي سيطرت عليَّ هي التي ساعدتني في تجاوز وضعي الصحي الحرج وحسب، بل المساعدة التي بذلها الطبيب منصور بتوفير العقاقير المنشطة من فيتامينات وغيرها هي ما ساعدني حقاً على التعافي بسرعة. كثرة ما توفر عندي من هذه الأدوية والعقاقير حثني على جمع بعضها وأرسالها إلى الزنزانات عبر المرضى الذين كانوا يتناوبون على الحضور للعيادة بين حين وآخر.

كان يحضر إلى هذه الردهة كثير من السجناء يحملون أمراض شتى تقف وراءها قسوة الجلاد ومعاملته الخالية من أي حس إنساني. نقص التغذية وضيق المكان إلى حد لا يتخيل والعفونة والظلام الدائم كانت مرتعاً لكل دواعي الموت. عندما كنت طفلاً زرت حديقة الحيوان ورأيت كيف تتمتع الوحوش بقفص كبير تتوفر فيه جميع حاجاته. أما في السجن فقد حشرنا في قفص بمساحة خمسة وعشرين متراً مربعاً، يحتجز فيه بصورة متواصلة أكثر من أربعين شخصاً ولا تتوفر به أدنى متطلبات الحياة. هذه الظروف المريعة أوقعت عدداً كبيراً صرعى لمرض السل الرئوي الذي يحتاج إلى رعاية خاصة ومعدات علاج لم تكن تتوفر بالمطلق لا في السجن ولا في العيادة الطبية. كان الطبيب منصور يقوم بمغامرة ويعرض نفسه لمخاطر كبيرة في علاج هذه الحالات؛ إذ أنه بعد ان يفحص المريض سريرياً ويستوثق من إصابته بمرض التدرن يقوم بعمل فتحة في صدر المريض، ويدخل عبرها أنبوباً دقيقاً يأخذه من قنينة المغذي. وبهذه العملية المعقدة والبدائية يبدأ استخراج سوائل كان يمتزج لونها بين الأصفر والأحمر المختلط مع اللون الأبيض في طست صغير أو سطل حسب المتوفر. كانت تتفاوت

كمية السوائل حسب درجة المرض وشدته، فقد كان يسحب أحياناً سطلين ونصف من هذه السوائل كمّا حصل مع سجين من أهالي بلد يدعى سيد حسن. كان الأنبوب الدقيق يبقى مثبتاً من خلال هذه الفتحة حتى بعد الانتهاء من العملية وغلقها بالقطن واللاصق كي ينزل ما تبقى من السوائل مع حركة المريض. لحسن الحظ إن عناصر الأمن كانوا يتورعون عن زيارة الردهة خوفاً من العدوى إلا نادراً، لذا كان من السهل تجنبهم قبل وصولهم بإخفاء آثار العملية، التي كانت في أعلى درجات الحظر وكان يمكن أن تعرض حياة الطبيب لخطر حقيقي.

دخل الردهة يوماً رجل طويل حنطي اللون بوجه بشوش ومحيا لطيف وخفة دم. نثر حضوره الراحة والاسترخاء بمجرد أن وطأت قدماه القاعة الصغيرة، مع أن التورم في حنجرته كان ظاهراً للعيان ويصيب كل من يراه بالحزن والأسى، إلا هو فقد كان هادئاً قانعاً بحاله. لم يكن هناك أي أمل في تدارك حالته فقد كان يعاني من مرض السرطان المنتشر في الغدد اللمفاوية. كان السيد محمد هاشم النداف وهذا اسمه، لا يكف عن ذكر أبنته الصغيرة "رشا" ولم تفارق لسانه أبداً طيلة الأيام التي

قضاها معنا. طيب حديثه عنها جعلنا جميعاً نتشوق لرؤية مدللته التي حرمت منه كما حرم منها. رحلت روحه سريعاً بعد أن أنهك المرض جسده، ولكن حديثه الممتع عن صغيرته جعلني أتعلق بقصتها كأنما خبأها في روحي.

هاجس رؤيتها ظل يطرق في رأسي وصدى كلماته عنها ظلت ترن في أذني. بعد انتشار مواقع التواصل الاجتماعي لفت نظري يوماً سؤال من رجل اسمه جمال المازني يسأل عن سجين سياسي اسمه سيد محمد أبو رشا، فكانت نقطة للتواصل معه، ومن ثم بلوغ فتاة أبيها التي غدت زوجة وأماً. كان لقاءً غريباً لم نجد وسيلة للتعارف بيننا سوى دمع حار نسكبه على ذكرى أب مات شوقاً لصغيرته التي ظل يداعبها في خياله حتى ساعة رحيله إلى عالم خال من الأسوار العالية والقيود. كافأها القدر بأن منحها زوجاً صالحاً وفياً نذر عمره في الاهتمام والبحث عن قضايا المعذبين من ضحايا النظام البائد من أجل ألا تطمس حكاياتهم كما طمست أجسادهم في مقابر خفية.

لم أكن الوحيد الذي حجّ لرؤية هذه الصغيرة فقد تقاطر إليها كثير غيري من زملاء الزنزانة وكان الرائد بيننا صديقي "مالك محمد ربح". كم أراد الطغاة ان تتوقف

حياتنا بين جدران سجن "أبو غريب"، ولكنها تصاعدت وانسلت من ذاك الطوق الحديدي، واستمرت خالدة تسقيها المحنة وتغذيها رابطة إنسانية عجزوا أن تكبلها قيودهم، وترعبها بنادقهم، وتنهيها مشانقهم.

لم تخل الردهة من حكايات غريبة ولعلها طريفة، فقد جيء في أحد الأيام بشخص وهو محمول، لأنه لا يستطيع المشي. دخل بمزاج قاتم يغلب عليه اليأس والقنوط. أبى أن يأكل شيئاً أو أن يشرب ولو قليلاً من الماء، بدعوى أنه لا يستطيع الذهاب إلى الحمام إلا زحفاً وهذا فيه مشقة كبيرة له لا يريد العيش معها. جاء الطبيب منصور ليلاً ليرى الحالات الجديدة الوافدة من الزنزانات الأُخر. وقف بعيداً وطلب منه أن يأتي عنده ليفحصه، فاعتذر الرجل لعدم قدرته على الحركة. اقترب الطبيب منه وبدأ يتنقل بفحص أعضائه، وكان يتمتم بأن الأمور عادية. فجأة أمسك إحدى ساقي الرجل، وظل صامتاً وهو ينظر بوجوم إلى نقطة بعيدة في سقف الردهة. كان منظره يوحي بأن خطباً كبيراً يوشك أن يوقع، مما أثار الريبة والخوف في نفوس الحاضرين وبالأخص المريض نفسه الذي بادر بالسؤال بلهفة وذعر:

- ماذا حصل دكتور، هل هناك من خطب سيء؟

- لا أستطيع أن أخبرك ما لم تحرك رجليك.

لـم يمر كثير مـن الوقت كـي نـرى الرجـل يبـدأ بسـحب ساقيه ومدهما، فيما كان الطبيب يلتفت إلينا وعلى محياه ابتسامة بمغزى خاص. استمر في حديثه مع الرجل وكأنه لم ير حركة ساقيه.

- أخشى أن أصف لك علاجاً فتكون آثاره سلبية.

- لماذا؟

- لن يكون دواءً نافعاً ما لم تحاول المشي، إذ أن آثاره خطرة بدون حركة، ولكن فعاليته كبيرة ومفيدة للغاية لو حصل العكس.

استمر في حديثه معه بلغة خاصة اكتسبها بالخبرة من التعامل مع هذه الحالات الناشئة من الإجهادات النفسية الرهيبة التي كان يمر بها السجناء. كان يتعاطف مع هذه الحالات وإن كانت تتخذ سبيل المخادعة للوصول لهذا المكان، فيسمح لأصحابها ترويحاً لهم بالبقاء أياماً عدة في الردهة التي كانت تعد منتجعاً رغم افتقارها لأغلب المستلزمات الطبية. لم يكن فيها سوى خمسة أسرة ومع ذلك كان يحدث في كثير من المرات أن يتجاوز العدد عشرة أشخاص مما يضطر المرضى للنوم على الأرض.

تزايد الأعداد ومحاولة الهروب إلى هذا المنتجع الوهمي دفعني لطلب مغادرة هذه الردهة بإصرار رغم معارضة الطبيب وتصميمه على ان رجوعي ينطوي على مخاطرة ليست باليسيرة، إلا أني اتخذت قراراً حاسماً، لأن رجوعي إلى الزنزانة سوف يوفر محلاً شاغراً كنت احتله بصورة مستمرة بحكم حالتي الخاصة، لأن أفراد الأمن لم يكونوا يوافقون على جلب أي شخص للردهة ما لم يرجع منها بالمقابل شخص آخر. اضطر الطبيب للموافقة تحت الإلحاح، وهكذا عدت إلى ق٢ في الزنزانة رقم ٢ بعد ستة أشهر وستة عشر يوماً أتنقل مثقلاً بأوجاعي وأنا على شفا الموت في كل لحظة منها. دخلت القسم أمشي على قدمي والجميع يحتفي بإيابي سالماً بعد قصة معاناة طويلة. لمست تعاطفاً وتضامناً كبيراً في الزنزانة الجديدة دفعني لطلب قريبي وابن مدينتي "راضي" كي يقوم بمساعدتي في قضاء شؤوني لظرفي الخاص. في الحقيقة كنت مشتاقاً لرؤيته ولم أكن بحاجة حقيقية لمساعدته، إذ إن الآخرين كانوا لا يتوانون عن تقديم أي عون لي. لم يطل مكوثي في هذه الزنزانة بسبب وضعي الخاص ونصيحة الأطباء بمزاولة الحركة

مما دفع إدارة القسم لإيداعي في زنزانة خاصة لم تكن مقفلة كالأخريات.

لم تكن أيام وليالي العيادة الطبية كلها سوداء، فقد كانت تجري نقاشات بين ساكنيها بحسب اختصاصهم العلمي، وأحياناً تتحول إلى مواقف طريفة، ففي يوم احتد النقاش في حوار علمي متشعب عن الفلك وكيفية دوران الكرة الأرضية، وكيف ان كل شيء يتحرك معها من غير أن يشعر الإنسان بذلك. في خضم هذا النقاش العلمي الجاد جاء صوت مقاطعاً بأسلوب من السخرية.

- أي كرة أرضية هذه التي تتحرك! مضت عليَّ السنون وأنا أروح وارجع وبيتنا لا يتحرك من موقعه؟ ضحك الجميع، وانتهى النقاش رغم محاولات أصحابه العودة إليه؛ فقد واصل الرجل بأسلوب كوميدي ساخر التعليق على حوارهم مما اضطرهم وسط جو من الضحك والانشراح إلى التوقف عن الأسلوب الجدي وتداول النكات بدلاً منه.

كما كانت هناك لحظات من المرح فقد كانت هناك لحظات أخرى للتفاؤل، ففي ليلة دخل الطبيب ومعه أحد مساعديه من السجناء وهما يحملان بشرى تطفح من وجهيهما بصدور قرار رئاسي بإلغاء محكومية جميع

السجناء وإطلاق سراحهم. عمت الفرحة الجميع إلا أني بخلافهم سادني جو من التشاؤم وقلت لهم بلهجة اليقين كأني مطلع على الغيب بأننا لن نخرج من هذا السجن الآن. كان الطبيب مصراً على تفائله فما كان أمامي إلا أن انفجر باكياً بعد أن خنقتني العبرة وقلت له: سوف تخرج أنت يا منصور، ولكن من سيداوي آلامنا ويضمد جراحنا بعدك، وأنت الذي تجازف بحياتك وتبذل غاية وسعك لأجل مساعدتنا والتخفيف عنّا. ظللنا لأيام نتحدث عن هذا البيان الرئاسي حتى جاء في أحد الصباحات المفوض سامي. بادرناه بالسؤال عن مصيرنا، فقال بجملة واحدة: أنتم على الأخوال. وهو تعبير عراقي شائع في إشارة إلى إيران، أي بمعنى دقيق اننا مرتبطون بقضية الحرب مع إيران، وهكذا تم تصنيفنا بأننا كالأسرى الإيرانيين، لا نملك من حقوق المواطنة العراقية، وهكذا تم استثناء السجناء السياسيين، ولم يطلق سراحنا حتى بعد انتهاء الحرب مع إيران.

عدت إلى القسم من جديد واستمرت حياتي تتأرجح بين العوق والأمل في استعادة حريتي. الحرية هي الحياة وبدونها فهو موت فوق الثرى سيلحقه آخر تحته. ولا حرية بلا كرامة ولا كرامة من غير شجاعة في التصدي

للعدوان. حينما أدخلت أسرة السيد محسن الحكيم إلى السجن جاءهم رجل أمن بمجموعة من السجائر كانت مخصصة من قبل دائرة الأمن لهم التي كانت تميزهم في المعاملة عن بقية السجناء، بعد أن قتلت بوحشية أكثر من سبعة عشر شخصاً منهم. لم توجه لهم أي تهمة سوى كونهم من عائلة السيد محمد باقر الحكيم المعارض الرئيس لنظام صدام. وقف شاب صغير ضعيف البنية يرتدي نظارات طبية لعل اسمه علِيّ عبد الهادي ليتسلم السجائر من ضابط برتبة ملازم يدعى حازم، وهو رجل بدين يتدلى كرشه من وسطه. فوجئنا بأن الشاب يقول للضابط أين بقية السجائر؟ أنت تعرف أن أكثرنا يدخن وانت تأتينا ببضع علب، أين الباقي؟

- لا يوجد غيرها.

- أسألك من جديد أين الباقي؟ هل بعته وانتفعت من ثمنه؟

- اسكت وإلا سوف أقتلك!

- أنا لا أخشى تهديدك إما تأتي لنا بجميع السجائر أو فليأت ضابط أعلى منك رتبة لأتفاهم معه.

كان تحدياً وليس حباً في السجائر، فهذه الأسرة عندما حظيت بزيارة أهلها قبلنا بسنوات كانت توزع كل ما

يصلهم على باقي الزنزانات وتأخذ حصة كالآخرين. بل إنهم كانوا يخجلون من أكل أي شيء لا يستطيع الآخرون بلوغه. وجودهم رغم قساوة الظلم الذي وقع عليهم أضفى على السجن مسحة من الأمل وزاد في معنويات السجناء في تحدي الظلم والطغيان. كان انعتاقهم من العبودية للأشياء درساً بليغاً استوعبه الأحرار، وبه سقط آخر حصن تمترس خلفه الجلاد.

# ٣١

***

كانت الأعوام تتتابع علينا ولا تحمل إلينا إلا مزيداً من المرض والألـم والقسوة. حقبة هاربة من التأريخ جعلتنا في مهب انفعالات عاصفة تلاطمنا في مسارات متعددة، مما أصاب بعضنا باليأس والكمد، وتركه فريسة لاكتئاب عميـق دفعـه للانطـواء صـامتاً فـي زوايـا الزنزانـة. لانـت عـريكتهم واكتننـت شـقاوتهم وأذعنـوا لقـدرهم ينتظـرون الردى وسيلة للخلاص ومسلكاً للنجاة. البعض الأكثر لـم يتوقـف عـن التطلـع إلـى الأمـام، لكـن لـن أتجاهـل الحقيقـة حينمـا أقـول إن كثيـراً منّـا قـد أصـابه التعـب مـن حمـل الأحلام فوق ظهورنا مثل الصلبان، والسير بها إلى غاية بدا لنا أنها بعيدة جداً وفوق طاقتنا وأكبر من صبرنا. كنا نغفو ونحن نتوسد سندسها، ونصحو ونحن على سجادة الفقر وبساط الألـم والعجز. كـان طوفـان الـذل والعبودية يدفعنا للهرب والالتجاء إلى شواهق الأحلام، ولكـن مد القسـوة كـان عاليـاً وبالكـاد نسـتطيع أن نمـد رؤوسـنا إلـى

الأعلى في هذه اللجة العميقة لنلتقط بها أنفاس الحرية كي لا تغيب عقولنا.

كنت في عطش إلى رؤية أي شخص من عائلتي، فقد بلغ بيّ الجدب حده وبلغ الجفاف منتهاه. تحاصرني الوحشة وأصبحت مثل حافٍ يسير على الشوك، وفي كل نقلة يمشيها يتلقى وخزة تفتصد قلبه من الألم قبل أن تجرح قدميه. كنت أشعر بأني ألهث وراء سراب، وكلما شددت نفسي وظننت أني بلغت واحة ارتوي منها لأقبض على رشفة ماء تقتل عطشي، أراها تفلت من بين أصابعي وتتحول إلى وهم يتلاشى مثل طيف نائم توقظه شمس النهار. كنت بحاجة ماسة إلى غمامة تسقي جدبي ووجه يروي شجرتي التي أصابها الحنين إلى جذورها، ويوقف أرجوحة القلق التي باتت تنقلني بين الشك واليقين.

في إحدى الليالي دخل عناصر من الأمن إلى القسم، وأخذوا يقرأون مجموعة من الأسماء كان اسمي واحداً منها، أخطرنا بشكل مفاجئ بأننا سوف نحظى في اليوم المقبل بزيارة من أهالينا. أبعد كل هذه السنين؟ تدفق الدم إلى قلبي وصار يلسعني الليل كله فتركني ساهداً مؤرقاً. جفا النوم عيني، وغادر عالمي وسط غزو المشاعر والأفكار التي اجتاحت فضاء خيالي وغزت جمجمتي.

ظلت أمواجها تدور برأسي كأنها بحر هائج لا يعرف السكون أبداً، حتى طلع ضياء النهار وأنا لا أتوقف عن التفكير في كيفية مقابلتهم، ومن الذي سوف يأتي لزيارتي؟ أُسائل نفسي أنّى لي معانقتهم وانا العاجز عن ذلك بسبب العملية الجراحية التي أجريت لي. أي احتكاك جسدي مهما كان ضئيلاً كان يسبب لي ألماً مبرحاً وتسري في جسدي ما يشبه الصعقة الكهربائية تخور معها كل ما تبقى من قواي.

تدفق ضياء النهار ومعه كانت تتلى أسماء السجناء من مكبر صوت داخلي تدعوهم لمقابلة أهاليهم. نودي على الجميع باستثنائي، بقيت جالساً على جمر تلسعني ناره. مرة أهب واقفاً وأخرى أدور متحيراً وجبل نار من الهواجس يلقي عليَّ حممه. أدور بعيني في كل ناحية تائهاً حائراً أبحث عن ملاذ يحميني من لظى وساوسي. يمضي الوقت ببطء مثل سيف ينحر أوداجي رغم سيل كلمات المواساة التي انهمر بها رفاقي إلا أنها كانت أشبه بقطرات ماء سرعان ما تتبخر في لهيب خوالجي المشتعلة مثل شمس في نهار آب قائظ. دنا وقت الزيارة من نهايته وإذا بأحد أفراد الأمن يفتح باب الزنزانة ويطلب مني الخروج مصطحباً إياي إلى غرفة خاصة. وإذا بي أجد

عائلتي حاضرة هناك بعد أن وصلوا متخلفين عن الموعد بسبب تبليغهم المتأخر بالزيارة. سُمِح لهم بنصف ساعة من الزيارة مع أنه لم يكن خطأهم، ولكن لا جدال مع سلطات الأمن فقولهم صواب وإن كان خطيئة وليس خطأً وحسب.

كان الحنين قد استبد بيّ وانفعالاتي تتدفق كأنها تيار نهر يجري من علو جبل شاهق مسرعاً لمصبه في بحر واسع يحتضن مياه الدنيا وما يسكن فيها. فراق طويل ولقاء لم يكن أحد منهم يصدق بحصوله معي إلا عند رخام ينتصب فوق قبر، لأن الأمن كان قد أبلغ والدتي قبل سنوات بنبأ إعدامي حينما كنت مريضاً. تجلدت متماسكاً لأبعد ما توفرت عليه في تلك اللحظات عسى أن أترك انطباعاً لديهم بأن هذه النوائب لم تؤثر فيّ، إلا أن مقاومتي تلاشت وأنا أقف عاجزاً عن الانحناء على قدمي والدتي. تجرعت ألماً أشد من مرارة الحنظل لم يفارقني طيلة حياتي بعد هذه المقابلة جراء هذا العجز. محاولاتي التعيسة لترقيع هيئة بدني المتهالك لم تجد نفعاً وأنا أسمع لسان أختي أم سلام يدمع حزناً وأسى:

- لكنهم قد كسروا ذراعيك يا عزيزي علِيّ.

- لا، ليس صحيحاً. ها هما انظري كيف أحركهما.

حركتي المشوهة أكدت مخاوفها وأقرت بعجزي على خلاف مزاعمي المفضوح زيفها. حاولت أن أصرف نظرهم بتغيير الموضوع بالحديث عن الزيارة المقبلة وكيفية ترتيبها لتكون بشكل دوري منتظم شهرياً بعد أن أبلغني رجل الأمن بذلك. انتهت الزيارة سريعاً لكنها كانت ثقيلة للغاية إلى حد جعلت خلواتي مع نفسي تطول. أتأمل مشاهد الزيارة، واستعرض أحداثها، وأتجرع حسرة عدم تقبيل قدمي والدتي. انتظمت زياراتهم بعد مرور عام تقريباً من انتهاء الحرب مع إيران مصاحبة لتحسن نوعي في ظروف السجن قياساً لما كنّا نعانيه من فقر مدقع وحرمان. لم يمر عام واحد إلا وحرب ثانية أشد من سابقتها تندلع مع تحالف دولي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية لإخراج قوات الجيش العراقي من الكويت؛ مما أدى إلى قطع سلسلة الزيارات المنتظمة.

عوضاً عن الوجوه التي نتشوق لرؤيتها باتت أصوات القذائف والصواريخ تنهمر كالمطر. تأخرت كثير من العوائل عن زيارة أبنائها خصوصاً ممن يسكن في المحافظات. زاد من قلقنا عليهم، جهلنا بتداعيات الحرب الضارية مع انهيار شامل للبنى التحتية بتوقف كامل للخدمات الأساسية من كهرباء وماء شرب

واتصالات. كنّا نجتمع في أيام الزيارات أمام الباب الذي تدخل منه العوائل لنلتقط أي خبر ومن أي شخص. كانت الزيارات مطراً يسقي أرضنا المجدبة وشعلة ضياء تنتشر في العتمة، ولكن العتمة كانت أكبر بكثير من أن تبدد بأعواد كبريت سرعان ما تنطفأ.

في يوم من ذلك الشتاء القاسي دخل أخي نوري من تلك البوابة يتبعه رهط من عائلتي يخلو من والدتي. أجابوا على استفهاماتي بأن الظروف التي يمر بها البلد وصعوبة التنقل مع غياب شحة الوقود وندرة حافلات النقل العام وشدة الزحام لم تسمح لها بالمجيء، ولكنها أرسلت قبلاتها إليك. وشرع كل من أخي نوري وأختي أم محمود وابن أختي عصام خزعل بتقبيلي نيابة عن أمي. بعد مدة وجيزة غادر أخي المكان الذي كنّا نجلس فيه ليقابل بعض من أهالي الشطرة ممن كان يشاطرني السجن. نهض يبحث عنهم رافضاً أي خيار في مرافقته بلهجة حازمة غريبة مريبة لم أجد لها تفسيراً. مع حلول المساء جلس إلى جواري (الحاج حسين أبو يحيى، ورعد جبار نجم، الحاج غالب الشكرجي، جبار عچوب، مؤيد عبد الكريم، صادق جعفر ميرزا، سعد عبد الواحد، كاظم محمد حنيش وعلي طالب) وكلهم من أهل مدينتي

الشطرة. بدأ الحديث بمقدمات غريبة تشي بأنهم يمهدون لخبر ثقيل عليَّ تقبل شدته الباهظة. واقعة صاعقة نزلت عليَّ وهم يقولون لي: إن والدتك قد انتقلت إلى جوار ربها.

آه كيف ترحلين يا أماه وأنا لست إلى جوارك؟ هل زعلتي مني لأني كنت بخيلاً شحيحاً حين فضلت نفسي عليك ولم أجرؤ على الانحناء لأقبل قدميك خشية ألمٍ لم يفارقني يوماً؟ ما أشقاني حين حرمت نفسي من رشف نبع الحنان وهل الينابيع تؤتى بغير الانحناء. رحلتي يا شمسي ونور حياتي، وحين ترحل الشمس للأبد سوف يكتنف الدنيا ظلام سرمدي ولا يعود للحياة من بعدها طعم أبداً. أماه، كنت أتجلد هذه السنوات العجاف كلها وأغالب قسوة السجن وأصبر على مرارة المرض أملاً في لقياك بعد الفراق كي أحظى من جديد بمجالستك والارتماء في أحضانك كي انعم بدفء حنانك. علام الآن التصبر والتجلد، وقد انقضى كل شيء؟ آه منك أيها السجن، ألا تعلم ان الموت في غفلة مني قد أخذ أمي إلى مكان قصي؟ آه، ثم آه، ثم آه منك فقد أسرفت كثيراً وجاوزت حدك وأحكمت عليّ طوقك، فلم يبق في جعبتك شيء إلا وأذقتني مرارته ولا في كنانتك من سهم

وإلا مزقـت بـه فـؤادي. قـد بلغـت فـي طغيانـك الـذروة ووصلت إلى الختام.

**تمت**

**لندن/ الجمعة**

**٦- ١- ٢٠٢٣**

٩٠٥٦٣ / ٨١٣
هـ ٩٤٩ الهندي ، ناهض
فينكس / ناهض الهندي
ط١ :- بغداد : دار السرد ، ٢٠٢٣ .
( ٢٣١ ) ص ؛ ( ١٤.٥ × ٢١ سم) .
١- القصص العربية - العراق - أ- العنوان .

م . و
٤٣٩ / ٢٠٢٣

المكتبة الوطنية / الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٣٩) لسنة ٢٠٢٣م

دار السرد للطباعة والنشر والتوزيع
العراق ـ بغداد ـ شارع المتنبي
هاتف: ٠٧٧٣٥٩٢٩٤٨٤
بريد إلكتروني: alrtyu44@gmail.com
رياض داخل: Facebook